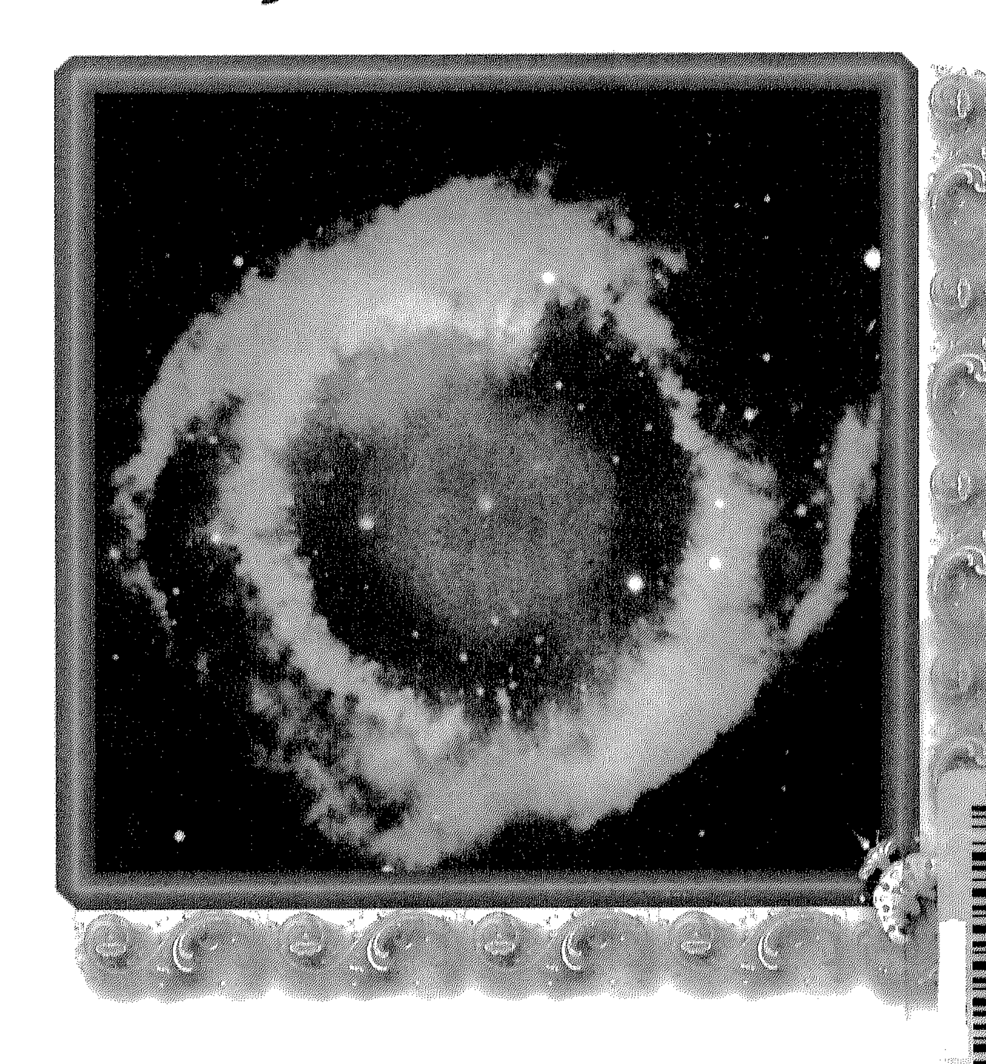
من أسرار القرآن والكون والإنسان

القيامة بين العلم والقرآن

الدكتور داود سلمان السعدي



دار الحرف العربي

القيامـة
بين العلم والقرآن


دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ٦٤٨٠-١١٣
بيروت - لبنان

من أسرار القرآن والكون والإنسان

القيامة بين العلم والقرآن

الدكتور داود سلمان السعدي
اختصاصي الأمراض الباطنية



دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصلاةُ والسلامُ علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين محمّدٍ وعلىٰ آله الطاهرين وصحبه الميامين.

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾

احتضار نجم «سديم المِرْوَحَة» (Nébuleuse de l'hélice)، وهو نجمٌ بحجم الشمس، ويبعد عنا (٤٠٠) سنة ضوئية. يظهر هذا النجم وقد تحول إلى قزم أبيض (الدائرة الزرقاء في وسط الصورة)، أما الطبقات المحيطة به فتتألف من غازات الهايدروجين والنايتروجين (اللون الأحمر) والأوكسيجين (اللون الأخضر) الناتجة عن انفجاره واحتضاره.

إن الغلاف الكروي المحيط بهذا النجم المحتضر يُشَبَّه بالحلقات، أو «الفقاعات»، بالاصطلاح الفلكي. إنه التكوير.

مقدمة

مثلما قد عَرَف الإنسان، منذ أنْ خُلِق، أنّ الأحياء كلها تولد، وتعيش، ثم هي تموت، فلقد عرف في القرن العشرين أنّ الشمس هي نجمٌ مثل بقية النجوم، وأنّ النجوم تولد، وتحيا، وتشيخ، ثم هي تُحْتَضَر. ولئن بَيَّنَ كتابُ الله تعالى، ومنذُ (١٤) قرناً، تكوير الشمس، أي احتضارها، تتبعها المنظومةُ الشمسية كلها، يوم القيامة، فلقد عرف العلماء، في القرن العشرين، أنَّ كلَّ نجمٍ يُشابه الشمس في حجمها ينتهي النهاية نفسها، فهو يصير عند احتضاره، وبالاصطلاح الفلكي، «عملاقاً أحمر»[١]، وهو ما يؤدي إلى انهيار المنظومة الشمسية، أو «قيام قيامتها».

ولئن كان كلُّ ما في الكون يخبّرنا، في كل حين، بحقيقة الموت مِنْ بعدِ حياة، فقد حُقَّ لنا أن ننظرَ ونتفكّرَ ونتدبّر، وأن نقفَ وقفة تأمُّلٍ مع أنفسنا، حتى نعرف موقعنا في الكون والحياة، أن ننظرَ إلى خَلْقِنا كيف هو ابتدأ، وإلى حياتنا كيف هي تسير، ثم أن ننظر إلى ما نحن جميعاً إليه صائرون. لا بد لنا من أن ننظرَ إلى الخَلق فنعرفَ الخالق، ننظرَ في ما قد خلق الحقُّ سبحانه ونتفكر فيه، وهو كله ينطق بعظيم قدرته، وجليل صنعه، وجميل فضله، إذ إن كل حقائق الكون والحياة لتدعونا للايمان بخالق كل شيء الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدىٰ، ربُّ العالمين، والبارىء المصور، والرحمن الرحيم. وأن نعرفَ الله تعالى معناه أن نعبدَه ونحمده ونسير على هديه والنور الذي أنزل على رسوله، محمد (ص).

---

(١) Red giant.

وإذا كانت الخبرةُ المتجددة للإنسان، مُضافةً إلى الفطرة الإنسانية، تُعلِمُه بأنّ لكل شيءٍ هدفاً، وأنّ له نهايةً ينتهي إليها، وأنّ لكل عمر أجلاً، فإنّ سنن الحياة التي قد عرفناها تُخبِّر الجميع أيضاً بأنّ لكل عملٍ جزاءً من صنفه، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، وأنْ لا شيء يضيعُ في هذه الحياة.

قال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ.

وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ.

ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ.

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤٢].

وقال: ﴿. . لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ . . ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

لا مفرّ من امتحانات الحياة الصعبة للإنسان، ينظر ربُّه إليه هل هو يطلب العلم ويُعمِل فكره ويجاهد نفسه ويطيع ربَّه فيَرقىٰ في مدارج الرقيِّ نحو الأحسن والأحسن، وكما قد أراد له، أم إنه يركن إلى الجهل وإلىٰ هواه وشياطينه فيَسْفُل.

ولقد قال رسول الله (ص): الدنيا مزرعة الآخرة.

والمؤمن الذي يرىٰ ما لا يُعدّ من آياتِ الله تعالى في الكون والحياة يؤمن بكتابه وبرسوله. هو يعرفُ موقعه في الحياة، وفي الزمان والمكان، حقّ المعرفة، ويعلم أنّه سائرٌ إلى الموت لا محالة، ويعلم أيضاً أنّ مِن بعد الموت بعثاً وحساباً وجزاء، وذلك هو يوم القيامة. والإنسان العاقل، أيُّ إنسان، هو الذي يستعدُّ للأمر من قبل أن يقع فيه، فهو يأخذُ أُهْبَتَهُ له من خلال عبوره لصنوفٍ من الابتلاءات، أو «الامتحانات»، في صعوده المنشود ورقيّه في مملكة الله. وإنّه لامتحانٌ عظيم أين منه ما يعرفه الدارسون. هو امتحانٌ تتعلّق به حياتُه هو نفسه، حياةٌ دائمة في جنة نعيمٍ أو تصلية جحيمٍ أبديَّيْن.

* * *

وتتجلىٰ أهميةُ الإيمان باليوم الآخِر العظيمة، وبما فيه من قيام قيامة المخلوقين، ومن بعثٍ، وحسابٍ، وجزاءٍ، في إقران الحقِّ سبحانه وتعالىٰ له بالإيمان بالله تعالىٰ وبالقرآن الكريم في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤].

* * *

ولقد تركّز البحثُ، في هذا الكتاب، على قيام القيامة، أو نهاية هذا العالم الذي نعيش فيه. وأما مواقف البعث، والحساب، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، فلم يكن البحث المفصّلُ فيها، على خطورتها، موضوع هذا الكتاب.

* * *

ولسوف يرىٰ قارىءُ هذا الكتاب أنّ هناك توافقاً مُذهِلاً بين ما قد جاء في كتابِ الله تعالىٰ وحديثِ رسول الله (ص) حول يوم القيامة وما قد جاء به العلمُ الحديث حول نهاية الشمس والنجوم الأخرىٰ التي تُشابهها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ .. ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣].

انظُرْ إلىٰ معاني كلمة «التكوير»، تكويرِ الشمس، التي جاءت في سورة «التكوير»، وهي قد بلغت السبعة من المعاني، ثم اُنظُرْ إلى حقائق احتضار النجوم التي تُماثِلُ الشمس، تَرَ العَجَب العُجاب من التطابق المدهش بين ما قد جاء به القرآن وبين أحدث مكتشفات العلم في القرن العشرين.

* * *

وإذا ما أفلح هذا الكتاب في إلقاء بعض الضوء علىٰ ما بين العلم والقرآن من قرابةٍ مُدهشةٍ بل وتطابق، حول نهاية الجنس البشري في عالمنا الأرضي ونهاية بقية

المنظومة الشمسية، ثم هو قد حَفَزَهُ إلىٰ أن ينظرَ فيقبِسَ لنفسه ما شاء أنْ يقْبِس من نور الحق، ومن إرادةِ الارتقاء نحو الأحسن في هذه الحياة الدنيا ولِما بعدَها أيضاً، فلقد قام بدوره الذي أراده منه مؤلف هنا الكتاب.

الدكتور

داود سلمان السعدي

الشارقة

غُرّة رمضان ١٤١٧ هـ

١٠ كانون ثانٍ ١٩٩٧

الباب الأول

الإشفاقُ من الساعةِ صفةٌ للمتّقين

﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴾ [الطور: ٢٦].

مُشفقون: حذرون خائفون.

تلك لَعمري هي صفةُ المتّقين ودَيْدَنُهم: إنّه الحَذَر والخوف من الساعة بالاستعداد لها كأحسنِ ما يكون عليه الاستعداد، وإنّه لَـلْخوفُ من عذاب الآخرة بتقوىٰ الله في الحياة الدنيا.

إنّا أخلصناهم بخالِصَةٍ ذكرى الدار

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ.

إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ.

وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

الأيدي: جمعُ يدٍ، بمعنىٰ القوة.

بَصَر: بمعنى بصير، مجازاً.

أُولي الأيدي والأبصار: أُولي القوة في الطاعة، والبصيرة في الدين.

يتميّزُ الأنبياء بصفتين أساسيتين: البصيرة النافذة، والقوّة في الفعل، فهم يجمعون بين العلم والعمل، ويتفوّقون فيهما، ومَن كانت هذه صفاتُه فقد حُقَّ للناس أن يذكروه، وأن يَقْبِسُوا منه العِبرةَ ويقتدوا به.

إنّ الانبياء قد عرفوا الحق كما لم يعرفه غيرهم من الناس، وهم أقوياءُ حازمون في الفعل والطاعة لا كغيرِهم من الناس. وهذه الصفات الباهرة التي يتّصفون بها إلى أيِّ شيءٍ هي تؤدي:

﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾.

أخلصناهم: اخترناهم واصطفيناهم.

الباء: سببية.

خالصةٍ: صفة خالصة صافية لا شَوْب فيها، والنون للتفخيم.

لقد اصطفى الحقُّ سبحانه أنبياءه، وجعلهم خالصين له، لصفةٍ عظيمةٍ خالصةٍ فيهم، هي تَذَكُّرُهم الدائم للآخرة وخُلوصُهم في الطاعة الناتج عن ذلك، وتذكيرُهم للآخرين بها.

فأما وأنّ بعد المَبدإِ مَعاداً، وأنّ بعد الموت حياةً وحساباً، فإنّ العِبرة ليست في هذه الدنيا الفانية، بل هي في الحياة الحقّة، الحياة الأُخرىٰ الباقية، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشر، خيراً ما أعظمَهُ! وشرّاً ما أشدَّهُ! لقد عرف العارفون حقيقة الدنيا وفَناءها، فاستعدّوا للآخِرة وخلودها. وإنّ تلك المعرفةَ الخالصة الصافية للحق لَتدفع المؤمنين المتّقين إلى العمل لله وللدار الآخرة. هي خَصلةٌ جليلة اختصّ الحقُّ سبحانه وتعالى أنبياءَه، والذين هم أحسنُ الخَلق، واصطفاهم بها، فحُقَّ للناس أن تكون هذه الصفة، صفةُ ذِكر الدار الآخرة والعمل لها، خَصلةً ملازمةً لهم في كل حين.

الموت

* مَنْ ماتَ فقد قامت قيامته.

* الناسُ نيام، فإذا ماتوا انتبهوا.

* الموت هو أولُ لحظةٍ من الآخرة وآخِرُ لحظةٍ من الدنيا.

ولذلك فقد وجب أن نتناول موضوع الموت في هذا الكتاب.

حسابٌ بعد إقامة الحُجّة بالسِّجل المكتوب

* مهما عاش الإنسان فهو من بعد ذلك يموت، فيصير في بَرْزَخٍ إلى يومِ يُبْعثون، ثم هو يُخْلَدُ في جنّةٍ أو نار.

* إنّ كل ما يعمله الإنسان، من صغيرةٍ أو كبيرة، تسجِّلُهُ عليه الحَفَظَةُ من الملائكة وتُحصيه مكتوباً محفوظاً، إذ لا يحاسب اللهُ تعالى عبادَهُ من دون أن يُقيم الحُجّة عليهم:

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ.
كِرَامًا كَٰتِبِينَ.
يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار: ١٠ ـ ١٢].

وتدلّ هذه الآيات على أن الكتابة حقيقية، لإقامة الحجّة على العباد يوم الحساب.

قال الإمام عليّ: «إنّ مع كلِّ إنسانٍ مَلَكَين يحفظانه، فإذا جاءَ القَدَرُ خَلَّيا بينه وبينه، وإنّ الأجَلَ جُنَّةٌ حصينة»[1]

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ
وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ
وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢].

الإمام: كناية عن عِلْمِ اللهِ الذي لا يَعْزُبُ عنه شيء.

كتاب الأبرار والفُجّار

ولقد تحدّث تعالى على «كتاب الأبرار» فقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ . كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ . يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ . إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [المُطَفِّفين: ١٨ ـ ٢٢].

وقال عن «كتاب الفُجّار»: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المُطَفِّفين: ٧ ـ ١٠].

والمتّقون يُؤْتَوْنَ كتابَهم بيمينهم، وأمّا الظالمون فإنّهم يُؤْتَوْن كتابهم من وراء ظهورهم: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا . وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ . فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا . وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا . إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا . إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ . بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ١٥]
لن يحور: لن يرجع ولن يُبعَث.

(١) الأجل: ما قَدَّرَهُ الله للحيّ من مدة العمر، وهو وقايةٌ حصينةٌ من الهَلَكَة.

المُتَلقِّيان

﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ .
مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ [قَ: ١٧ و١٨].

إنّهما ملَكان حافظان يسجّلان حسنات الإنسان وسيّئاته، يجلسُ كاتبُ الحسنات عن يمينه وكاتبُ السيئات عن يساره.

رقيبٌ عتيد: رقيبٌ مهيّأٌ حاضر، لا يغادرُ قولاً ولا فعلاً، ولا صغيرةً ولا كبيرة.

وٱنظُرْ مرّةً أخرىٰ إلى قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ ﴾ تَرَ أنّ عمل الملكيْن هو تلقّي المعلومات وتسجيلُها ليس غير.

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا . ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء: ١٣ و١٤].

طائرَهُ: عمله الصادر الطائر عنه. في عنقه: دلالة على أن الإنسان هو وحده المسؤول عن عمله.

﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩].

إنه إحصاءٌ وتسجيلٌ لكل شيء.

﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ
وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ
تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]

والحَفَظة هم الملائكة الذين يكتبون أعمال الناس، لِتُعْرَضَ على رؤوس

الأشهاد يوم الحساب، وذلك من جملة قهرِهِ سبحانه لعباده، وهم (لا يُفَرِّطُون) أي لا يتهاونون أو يقصِّرون.

كَرْبٌ ومصائب، وكَدْحٌ ومتاعب، وحسابٌ وعقاب، هذا هو الإنسان، وهذه حياته، وهو يرى نفسه، مع ذلك، شيئاً مذكوراً.

موتُ الإنسان، أو تَوَفِّيه

وأصلُ التَّوَفِّي: أخذُ الشيء وافياً تامّاً، يُقال: توفّاه الله، أي استوفىٰ روحَهُ وقَبَضَه.

* ولا يعلمُ مخلوقٌ أجلَهُ، بل هو لا يدري بأيِّ أرضٍ يموت:

﴿. . وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا

وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . .﴾ [لقمان: ٣٤].

* إلاّ أنّ أجَلَ الإنسان، أو موعدَ نهايته، محدّدٌ مكتوب من عند الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا . .﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا

وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا

فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ

وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى . .﴾ [الزمر: ٤٢].

* قُلْ يا محمدُ للناس إنكم ميّتون لا محالة، ولَسوف تتكشّف لكم الحقيقة عند الموت، إذْ يتوفّاكم مَلَك الموت الذي وُكِّلَ بقبض أرواحكم ولا يُبقي أحداً منكم: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

سَكَراتُ الموت

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ
ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]

سَكْرَةُ الموت: غَمْرَتُه وشِدّتُه وكَرْبُه.

في آخرِ لحظةٍ من لحظات الدنيا وأولِّ لحظةٍ من لَحَظات آخرة الإنسان، وفي سَكَراتِ الموت، ينكشفُ لِمُنكِر البعث أنّه حقّ، ويُقال له بلسان الحال أو المقال: هذا ما استبعدتَ وأنكرت، وهذا هو الموت الذي كنت تهرب منه، فلم ينفعكَ هربُك.

احتضار الكافر

* ﴿ . . وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ . . ﴾ [الأنعام: ٩٣].

في غَمَرات الموت: شدائده، وسَكَراته، جمعُ غَمْرَة، وهي الشِدّة. وأصلُها الشيء الذي يغمرُ الأشياء فيغطّيها. يُقال غمَرهُ الماءُ إذا عَلاه وستَرَهُ، ثم استُعْمِلَ في الشدائد والمكاره.

عذاب الهُون: عذاب الذلّ والهوان.

كلُّ من يَجْحَدُ الخالقَ واليوم الآخِر أو يسيءُ إلى عيال الله ولو مثقالَ ذرّةٍ فهو ظالم، وما مِن ظالمٍ على الاطلاق إلاّ ويلاقي جزاء ظُلمه في الدنيا قبل الآخرة ولو ساعة الاحتضار ونزع الرّوح من جسده حيث تؤخذ منه بالتنكيل والعذاب الوبيل، قال الإمام علي: «الموت للمؤمن كنزع ثيابٍ وسخة، وفكّ قيودٍ وأغلالٍ إلى أفخرِ الثياب، وآنَسِ المنازل، وهو للكافر كخلع ثيابٍ فاخرةٍ إلى أوسخها وأخشنها، ومن المنازل الأَنيسة إلى أوحشِها وأعظمِ العذاب».

﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أي قائلين لهم أَخرِجوا أرواحكم. وهو كناية عن العُنف في السياق والإلحاح، والتشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال.

* ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ . .﴾ [الأنفال: ٥٠].

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

قالوا: وهذا الضرب أقل من القليل بالنسبة إلى نار الجحيم.

أقول: ذلك صحيح، وهو مع ذلك موقفٌ عصيب رهيب، ويضاف إلى الضرب فيه الخزيُ المعنوي ثم وضوحُ المآل السيّىء الدائم.

العاصي يطلب إرجاعه إلى الحياة الدنيا

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ .
لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ و ١٠٠].

عندما يحينُ أَجَلُ الإنسان يطلبُ الرجعة حتى يَعملَ صالحاً. وهيهات فقد فات ما فات، وكلامه ذاك لن يُغنِيَ عنه شيئاً، لأنّ من مات فقد قامت قيامته، والبَرْزَخُ حائلٌ يحول دون رجوعه إلى الدنيا.

الظالمون يستسلمون وينفون

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨].

ظالمي أنفسهم: بمعصيتهم لله وعدوانهم على عباده وعياله.

أَلْقوا السَّلَمَ: استسلموا، حيث لا سبيل للفرار أو النفاق.

يستسلم الظالمون لمصيرهم المحتوم، مصير العذاب، عند الموت وبعده،

حيث يُدركون أنّهم قد أُحيط بهم، وهم لا يملكون يومئذٍ، على انعدام القدرة والحيلة على تخليص أنفسهم، إلا أن يقولوا: ما عَمِلْنا من سوء!

الملائكة تُقيم الحُجّة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

وَرَدَ أنّ هذه الآية نزلت في أُناسٍ بمكة أسلموا بألسنتهم ولم يهاجروا مع النبيّ (ص)، حتىٰ إذا خرجَ المشركون إلى بدرٍ خرجوا معهم وقاتلوا المسلمين، فقُتلوا بها كُفّاراً.

نرى، في هذه الآية، أنّ الظالم، عند الموت، يحاول الدِّفاع عمّا اجترَحه من السيّئات بالأعذار والتبريرات الكاذبة حتىٰ يُخلّصَ نفسَه، إلاّ أنّ الملائكة تقيم عليه الحُجّة.

والمُتّقون: أمنٌ وفرحٌ وبُشرىٰ

* ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟
تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَلَّا تَخَافُوا۟
وَلَا تَحْزَنُوا۟
وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ.
نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ.
نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٠ ـ ٣٢].

تَتَنَزَّلُ ملائكة الرحمة على المؤمنين المتّقين، عند الموت، بالبُشرىٰ من عند الله تعالى بأنّ لهم عنده لزُلفىٰ وحُسْنَ مآب، وهي تقول للذين أطاعوا واستقاموا على الطاعة، عند الاحتضار: لا تخافوا، فعمّا قليل تجدون ما تشتهيه الأنفس ولذّة الأعين.

ووالله إنّ لَفِي هذه الآيات ما إنْ ينزلَ على قلبِ المؤمن حتى تَسْكُنَ رُوحُه بالطُّمَأْنينة والبُشرىٰ بالرَّوْحِ والرَّيْحان.

* ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

الذين تتوفاهم الملائكة طيّبين تقول لهم السلامُ عليكم لا تخافوا ولا تحزنوا، أُدخلوا الجنة بما كنتم تعملون.

وإنّ ملائكة الرحمة، وعلى عكس العاصي، لَتقبِضُ روحَ المؤمنِ بيُسْرٍ ورِفْقٍ ولين، وهي تتلقّاهُ بالتطمينِ والتبشيرِ بالجنة.

الإنسان عند البعث

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ.

وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ.

لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ.

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: ٢٠ ـ ٢٣].

تجيءُ كلُّ نَفسٍ، بَـرَّةٍ أو فاجرة، عند بعثها، ومعها اثنان:

١ ـ (سائق)، أي مَلَكٌ يسوقُها إلىٰ المَحْشَر.

٢ ـ و(شهيد)، أي مَلَكٌ يشهد عليها بعملها.

وما هو بَصَرُكَ، يومئذٍ، يا ابن آدم؟

إنه حديدٌ، نافذٌ، قويّ!، فهو يُبصِرُ ما كان يَجْحَدُهُ في الدنيا.

فكأن بَصَرَ الإنسانِ قد كان في الدنيا كليلاً فعاد في الآخرة نافذاً حديداً، وكأنّ البصرَ الصحيحَ الكامل هو في الآخرة لا في الدنيا!

قال الإمام علي: الناسُ رُقود فإذا ماتوا انتبهوا.

فالحياة الآخرة إذاً هي الأساس، لأنها حياة الخلود، وأمّا الحياة الدنيا فهي ليست الإمتاع زائل، لا بل إن الإنسان في هذه الحياة هو كالأعمىٰ، فالذي يموت ويبعث، وبنصِّ الآية الكريمة، هو كَمَنْ كان قد غُطيَّ بصُرُهُ فحُجِبَ عنه النظر، ثم إذا هو مات وبُعث صار بصرُه حديداً.

حقاً ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

الحَيَوان: الحياة الطيّبة الدائمة.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ..﴾ أي قال شيطانُه المُـقَـيَّـض له في الدنيا: هذا ـ أي الكافرُ ـ الذي عندي وفي مَلكتي مهيّأٌ لجهنم بإغوائي وإضلالي.

فأمّا المؤمنون المتّقُون

فإنّه ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

أي تتلقّاهم الملائكةُ بالحفاوة والتكريم، مُبَشّرَةً إيّاهُم بالرِّضوانِ والجِنان.

وأمّا العاصون

فإنّه ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفُرْقان: ٢٢].

يتلقّوْنَـهُم بالعار وغضب الجبّار، وأمّا الجنة فهي مُحَرَّمَةٌ عليهم، وهم لا يملكون سوىٰ إن يصرخوا (حِجْراً محجوراً) من النار، وهيهات.

الموت

للإمام علي، في خطبته «الغرّاء»

أمْ هذا الذي أنشأَهُ في ظُلُمات الأرحام، وشُغُفِ الأستار[١]. نُطفةً دِهاقاً[٢]، وعَلَقَةً مِحاقاً[٣]، وجنيناً[٤] راضعاً، ووليداً ويافعاً[٥]، ثم مَنَحَهُ قلباً حافظاً، ولِساناً لافِظاً، وبصراً لاحِظاً، ليَفْهَمَ مُعتَبراً، ويُقَصِّرَ مُزْدَجِراً، حتىٰ إذا قامَ اعتدالُه، واستوىٰ مِثالُه[٦]، نَفَرَ مُستكبراً، وخَبَطَ سادِراً[٧]، ماتِحاً في غَرْبِ هواهُ[٨]، كادحاً[٩] سعياً لدُنياه، في لَذّاتِ طَرَبِهِ، وبَدَواتِ[١٠] أَرَبِهِ، ثم لا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً[١١]، ولا يخشعُ تَقِيَّةً[١٢]، فمات في فتنتِه غَريراً[١٣]، وعاشَ في هَفْوَتِه[١٤] يسيراً، لم يُفِدْ[١٥] عِوَضاً، ولم يَقْضِ مُفْتَرَضاً. دَهِمَتْهُ[١٦] فَجَعاتُ المنيّة في غُبَّرِ جِماحِهِ[١٧]، وسَنَنِ[١٨]

---

(١) شُغُف الأستار: جمع شِغاف، وهو في الأصل غلاف القلب، استعارة للمَشيمَة.

(٢) دِهاقاً: متتابعاً.

(٣) عَلَقَةً مِحاقاً: أي خَفِيَ فيها ومُحِقَ كلّ شكلٍ وصورة.

(٤) الجنين: الولد بعد تصويره ما دام في بطن أمه.

(٥) اليافع: الغلام رَاهَقَ العشرين.

(٦) استوىٰ مِثالُهُ: أي بَلَغَتْ قامته حدّ ما قُدِّرَ لها من النماء.

(٧) خَبَطَ سادراً: خَبَطَ البعيرُ: إذا ضرب بيديه الأرض لا يتوقّىٰ شيئاً، والسادر: المتحبّر والذي لا يهتم ولا يُبالي ما صنع.

(٨) مَتَحَ الماءَ: نزعه وهو في أعلى البئر، والماتح: الذي ينزل البئر إذا قلّ ماؤها فيملأ الدلو ـ والغَرْبُ: الـدَّلْوُ العظيمة

(٩) الكَدْح: شدة السعي.

(١٠) بدواتُ رأيِه: جمع بَدْأة وهي ما بدا من الرأي، اي ذاهباً فيما يبدو له من رغائبه.

(١١) لا يَحْتَسِبُ رَزِيّة: أي لا يَظنها، ولا يفكر في وقوعها.

(١٢) لا يخشَعُ تَقِيَّة: أي الخوف من الله تعالى.

(١٣) غريراً: مغروراً.

(١٤) عاش في هَفْوَتِه إلخ: عاش في أخطائه وخطيئاته الناشئة عن الخطإ في تقدير العواقب.

(١٥) لم يُفِدْ: لم يستفد صواباً ولم يكتسب.

(١٦) دهمته: غشيته.

(١٧) غُبَّر جِماحه: بقايا تَـعَنُّته على الحق.

(١٨) السَّنن: الطريقة.

مِراحِه، فظلّ سادراً[١]، وبات ساهراً، في غَمَرات الآلام، وطوارق الأوجاع والأسقام، بين أخٍ شقيقٍ، ووالدٍ شفيقٍ، وداعيةٍ بالويلِ جَزَعاً، ولادِمَةٍ[٢] للصدرِ قَلَقاً، والمرءُ في سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ، وغَمْرَةٍ كارثةٍ، وأَنَّةٍ[٣] موجعةٍ، وجذبةٍ مُكْرِبَةٍ[٤]، وسَوْقَةٍ[٥] مُتْعِبَةٍ. ثم أُدرجَ في أكفانِهِ مُبْلِساً[٦]، وجُذِبَ مُنْقاداً سَلِساً[٧]، ثم أُلقيَ على الأعوادِ رجيعَ وَصَبٍ[٨]، ونِضْوَ[٩] سَقَمٍ، تحمله حَفَدَةُ[١٠] الوِلدان، وحَشَدَةُ[١١] الإخوان، إلى دارِ غُرْبَتِهِ، ومُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ[١٢]، ومفرَدِ وحشته، حتى إذا انصرف المُشَيِّعُ، ورَجَعَ المُتَفَجِّعُ، أُقْعِدَ في حفرته نَجِيًّا لِبَهْتَةِ[١٣] السؤال، وعثرةِ[١٤] الامتحان. وأعظمُ ما هنالك بَلِيَّةُ نُزولِ الحميم[١٥]، وتصلية الجحيم[١٦]، وفورات السعير، وسَوْرات الزفير[١٧]، لا فترةٌ[١٨] مُريحة، ولا دَعَةٌ[١٩] مُزِيحَةٌ، ولا قوة حاجزة، ولا موتةٌ ناجزة[٢٠]، ولا سِنَةٌ[٢١]

---

(١) ظلّ سادراً: أي حائراً.
(٢) اللادمة: الضاربة.
(٣) الأنّة: الواحدة من الأنّ أي التوجّع.
(٤) جذبةٍ مُكربةٍ: أي جذبات الأنفاس عند الاحتضار.
(٥) السَوْقة: السرعة في نزع الروح.
(٦) مُبْلِساً: يائساً.
(٧) سَلِساً: سهلاً لعدم قدرته على الممانعة.
(٨) الرّجيع من الدواب: ما رجع به من سفر إلى سفر فَكَلَّ، والوَصَب التعب.
(٩) نِضْو: مهزول.
(١٠) الحَفَدَة هنا: الأعوان.
(١١) الحَشَدَة: المسارعون في التعاون.
(١٢) مُنْقَطَع الزَّوْرَة: حيث لا يُزار.
(١٣) بهتة السؤال: حَيْرَتُه.
(١٤) العثرة: السقطة.
(١٥) الحميم: في الأصل: الماء الحار.
(١٦) التصلية: الإحراق. والمراد هنا دخول جهنم.
(١٧) السَّوْرَة: الشدّة، والزفير: صوت النار عند توقدها.
(١٨) الفترة: السكون، أي لا يَفْتُرُ العذاب حتىٰ يستريح المعذَّب من الألم.
(١٩) دَعَة: راحة، مُزيحة: تزيح ما أصابه من التعب.
(٢٠) ناجزة: حاضرة.
(٢١) السِّنَة: أوائل النوم.

مُسَلِّيَةٌ، بين أطوار المَوْتات[١]، وعذابِ الساعات! إنّا بالله عائذون!

عبادَ الله، أين الذين عُمِّرُوا فَنَعِمُوا[٢]، وعُلِّمُوا ففهموا، وأُنْظِروا فَلَهَوْا، وسُلِّمُوا فَنَسُوا! أُمْهِلُوا طويلاً، ومُنِحُوا جميلاً، وحُذِّرُوا أليماً، ووُعِدوا جسيماً!، أحذروا الذنوب المُوَرِّطَة[٣]، والعيوب المُسخِطة.

أولي الأبصار والأسماع، والعافية والمتاع، هل من مناصٍ[٤] أو خلاص، أو مَعاذٍ أو مَلاذٍ، أو فِرارٍ أو مَحَارٍ[٥]! أم لا؟ ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[٦] أم أين تُصْرفون! أم بماذا تغترّون! وإنّما حَظُّ أحدكم من الأرض، ذات الطول والعَرض، قِيدُ قَدِّهِ[٧]، مُتَعَفِّراً[٨] على خَـدِّهِ! آلآنَ عبادَ الله والخِناقُ[٩] مُهْمَلٌ، والروحُ مُرْسَلٌ، في فَيْنَةِ[١٠] الإرشادِ، وراحة الأجساد، وباحةِ الاحتشادِ[١١]، ومَهَل البقيّة، وأُنُفِ المَشِيَّةِ، وإِنْظـارِ التـوبـة، وانفسـاح الحَـوْبَـةِ[١٢]، قبـلَ الضَّـنْـكِ والمَضِيـق، والـرَّوْعِ[١٣] والزُّهُوقِ[١٤]، وقبل قدوم الغائبِ المُنْتَظَرِ[١٥] وإخْذَةِ العزيزِ المقتدر.

---

(١) أطوار الموتات: كل نَوْبة من نُوَب العذاب، كأنها موت لشدّتها. وأطوار هذه الموتات: ألوانها، وأنواعها.

(٢) عُمِّروا فَـنَعِمُوا: عاشوا فتنعّموا.

(٣) المُوَرِّطة: المُهْلِكة.

(٤) مناص: ملجأ ومفرّ.

(٥) مَحَار: أي مرجع إلى الدنيا بعد فراقها.

(٦) تؤفكون: تُـقْـلَبُون، أي تنقلبون.

(٧) القِيد: المقدار، والقَدّ: القامة، والمراد مضجعه من القبر لأنه بمقدار قامة الإنسان.

(٨) متعفراً: قد لازم العَفَر أي التراب.

(٩) الخِناق: الحبل الذي يُخْنَـقَ به، وإهماله: عدم شدّه على العنق مدىٰ الحياة.

(١٠) الفَيْنَة: الحال والساعة والوقت.

(١١) باحة الدار: ساحتها.

(١٢) الحَوْبة: الحاجة والأرَب، وانفساحها: سَعَتُها.

(١٣) الرَّوْع: الشِّدة.

(١٤) الزُّهُوق: الاضمحلال.

(١٥) الغائب المُنْـتَظَر: الموت.

القيامة.. متى؟

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ. . ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ. . ﴾ [فصلت: ٤٧].

﴿ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ. لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧ و٥٨].

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

قال الشيخ حسنين مخلوف في تفسير هذه الآية: قَرُبَت القيامةُ جدًّا.

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا. وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦ و٧].

﴿. . وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ. . ﴾ [الحشر. ١٨].

لا يعلم موعد قيام الساعة إلاّ الله تعالى، إلا أننا نعلم من القرآن الكريم، ومن حديث رسول الله (ص)، أنها قد اقتربت، فلقد تكرّر ذكرُه تعالى لاقتراب يوم القيامة مرّاتٍ عديدة، وهو تكرارٌ يفيد التوكيد. ولقد اقتربت الساعة جدّاً حتى لقد شبّهها تعالىٰ بالغد.

القيامة تأتي بغتة

﴿ . . حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا . . ﴾ [الأنعام: ٣١].

بغتة: البغتة مفاجأة الشيء بسرعةٍ من غير اعتدادٍ به، ولا إلقاء بالٍ إليه.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

مُرْساها: وقوعها وحدوثها.

لا يُجلِّيها: لا يُظهرها.

لوقتها: في وقتها.

ثَقُلَت في السماوات والأرض: من الثِّـقَل ضد الخِفّة، و(في) بمعنى (على): أي ثَقُلَ وَقعُها على أهلهما لأهوالها وشدائدها.

حَفِيٌّ عنها: عالِمٌ بها، من حَفِيَ عن الشيء إذا بحث عن تَعَرُّف حاله، أو مهتمٌّ بالسؤال عنها مثل اهتمامهم.

﴿ . . وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ . . ﴾ [النحل: ٧٧].

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١].

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٠].

تبهتهم: تحَيِّرُهُم وتدهشهم، تذعرهم.

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً . . ﴾ [الحج: ٥٥].

مِرْية: شكّ.

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس: ٤٩].

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٦].

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا . . ﴾ [محمد: ١٨].

أشراطُها: علاماتها، جمعُ شَرَط، وهو ١ ـ العلامة ٢ ـ أول الشيء.

وأصله الإعلام، ومنه الشُّرْطي، سُمِّي بذلك لأنه أَعْلَمَ نفسَهُ بعلاماتٍ يُعْرَفُ بها.

تأتي القيامة مُباغِتةً للناس، من غير اعتدادٍ منهم بها، ولا إلقاء بالٍ إليها. فالناس عنها في غفلةٍ مُعرضون، وهي تأخذُهم كلمح البصر أو هو أقرب، بينما هم يتخاصمون، وهم لا يشعرون. وبينما أنّ علاماتها قد جاءت إلا أنهم عنها عَمُون، وهم يومئذٍ يبهتون، فلا يستطيعون ردَّها ولا هم يُنْظَرون، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

ونرى من الآيات المبيّنات كيف أنّ الناس بين يدي الساعة، رُغم ظهور علاماتها، هم عُميانٌ عنها لا يتفطّنون إليها، بل هم عنها غافلون، مُعْرِضون، مختصمون، لاهون، فتأْخُذُهم بغتة. وكلّما ازدادت الساعةُ قُرْباً كلما ازدادت العلامات الدّالّة على وشك حدوثها، وصارت أوضح وأقوىٰ. فلماذا، إذاً، هي تأخُذهم بغتة؟ إنها تباغتُهم لا مِن قِلّةِ تحذيرٍ وقلّة علامات، بل هي تفْجَأُهُم بسبب بُعدهم الشديد عن الله تعالى حتى إنهم لا يعودون يخافونه ولا هم حتىٰ يذكرونه.

إنهم، يومئذٍ، في شُغُلٍ من دنياهم التي تُلهيهم عن ذكر الله، وهم يومئذٍ في قمة الاختصام فيما بينهم. فالناس بين يدي الساعة هم بعيدون عن الله تعالى أيّما بُعد، وهم غافلون لا يذكرونه من رجاءٍ أو خوف، وهكذا يصير حدوث الساعة مُفاجئاً لهم أيّما مفاجأة، وهو أمرٌ هم مُعرِضون عنه لأنهم قد اتخذوا إلَهَهم هَواهُم. إنّ أعداداً متزايدة من الناس يبتعدون عن الله يوماً بعد يوم، بسبب انغماسهم في ألوانٍ من الحياة المادية اللاهية الصِّرفة التي تجتذب إليها المزيد والمزيد من الناس بسبب الوفرة المادية، والمكننة المتزايدة، وازدياد وقت الفراغ، وتوفّر وسائل اللهو وتنوّعها وأخذها للمزيد والمزيد من وقت الإنسان[1].

وأنتَ كُلَّما تهيّبْتَ من الأمرِ ازددتَ له توقّعاً وتأهّباً واستعداداً، فهو قد يَمْلِكُ عليك شعورك كلّه، وهو يملأُ عقلك ووجدانك إعظاماً له وخوفاً منه، وكلما أنت لم تتبصّر بأهميته تركتَه من دون أيِّ اعتبارٍ ونسيته ولم تُلْقِ له بالاً، وهكذا هو الحال في آخر الزمان.

(١) وليس انتشارُ أطباق استلام البث التلفازي، من طريق الأقمار الصناعية لما لا يكاد يُعَدّ من محطات البثّ التي تبثّ ليلَ نهار، وهي غالباً ما تبث السيّىء من القول والفعل وما يُلهي الإنسان عن ذكر الله بل ويبعده عنه، إلاّ مثالاً صارخاً على ما نقول.

الباب الثاني

ما قبل القيامة

أحوالُ الناس في آخرِ الزمان

أولاً ـ ما قبل القيامة
في كتاب الله تعالى

(١) الأرض تتزيّن وأهلُها يظنّون أنّهم قدروا عليها

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

الزخرف: ١ ـ كمالُ حُسْنِ الشيء، الزينة.

٢ ـ كلُّ شيءٍ حَسَنٍ مُمَوَّه.

٣ ـ الذهب، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣].

٤ ـ التزيين بالباطل، كما في قوله سبحانه: ﴿.. زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا..﴾ [الأنعام: ١١٢].

٥ ـ زخرف الأرض: ألوان نباتها.

ازّيّنت: ازدانت ازدياناً، أي حَسُنَت وجَمُلَت.

حصيداً: زرعاً محصوداً.

غَنِيَ بالمكان: طال مقامه به مستغنياً عن غيره.

قالوا في هذه الآية: هي بيانٌ لشأن الحياة الدنيا وقِصَرِ مُدَّةِ التمتّعِ بها مهما طالت، وقُرْبِ زمان الرجوعِ الموعود به، فهي في سرعة تَقَضِّيها وزوال ملاذِّها، بعد كثرتها والاغترار بها، كمَثَلِ ماءٍ أنزله الله على الأرض حتى إذا استكملت حُسنها وبهاءها وازّيّنت بأصناف النبات وبأشكالها وألوانها المختلفة جعل زرعها كالمحصود مِنْ أصله بالمناجل، كأن لم تَغْنَ أي كأنْ لم تمكُث تلك الزروعُ قائمةً على ظهر الأرض في الماضي القريب. فكذلك هي الحياةُ الدنيا في سرعة تَقَضِّيها وانصرام نعيمها، بعد إقبالها واغترار الناس بها.

إننا نرى في الآية الكريمة تشبيهاً لحال الأرض قبل قيام الساعة الوشيك، ووصفاً لِما هي عليه يومئذٍ.

وقولُه تعالى: ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ يدلُّ على وصولِ القِمَّةِ في الإمكان، وبما لا مَزيد عليه. فكأنَّ الأرضَ، قبل قيام الساعة، قد استوفت كلَّ نصيبها من العِمارة، والترفِ، والزينةِ، ولم يَعُد في إمكان الإنسان أحسنُ مما كان.

إنّها صورةٌ قرآنيةٌ رائعةٌ ومهولةٌ في آن. هي رائعةٌ في وصفها لحال الأرض قبل قيام قيامتها، إذ هكذا هي يومئذٍ: قد أخذت كاملَ حُسنها وزينتها، كما أنها مَهُولةٌ في وصفها لما ينتظر الأرض من شدائدَ مُهْلِكَة.

ومن المعلوم أنّ دوام الحال من المُحال، إلاّ أنَّ كمالَ الحالِ وتمامَهُ يُوحي للناس بالاطمئنان والرُّكون إلى الدنيا وزينتها، بل ويبعثُ على الطغيان وعلى توهّم القوة والعظمة الكاذِبيْن، وهو ما يؤدّي إلى الغفلة وقد يؤدي إلى الابتعاد عن الله تعالى.

وبينما أن قوله سبحانه: ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ يدل على استيفائها للعمارة، والحسن، والزينة، فإنّ هناك أيضاً وجهاً آخرَ لكلمة (الزخرف)، وهو (الذهب). لقد قام الإنسان في هذا القرن بحفرِ مناجمَ عظيمةٍ في كل أصقاع الأرض، وهي امتدت لتشمل مناطق كانت مجهولةً حتى وقت قريب. ثم هو قد استنزفها

ليتحول إلى غيرها. هو استنزف معادنها وثرواتها المدفونة فيها منذ ملايين السنين، باستهلاكه العظيم، وفي سنواتٍ معدودات، لثرواتٍ هي بعمر الأرض نفسها. فهو قد استخرج منها، منذ بداية القرن الحالي، من المعادن[1] ما قد فاق في مجموعه كل ما استخرجه منها على مرّ العصور. فالكميات المستخرجة من الذهب، في العصر الحديث، قد فاقت، ومخزونها يُسْتَنْزَفُ يوماً بعد يوم. والنِّفطُ[2] المخزونُ في جوف الأرض منذ مئاتِ الملايين من السنين يُقدَّرُ له أن يَنْفَدَ في عُقودٍ قليلةٍ من عمر الأرض.

فالاستهلاك العظيم والمُستنزِف لمعادن الأرض وثرواتها المدفونة، كالذهب، ولما يَقْرُبُ من النفاد، آيةٌ أخرى تُؤْذِنُ بقرب قيام الساعة.

حقاً إنّها لَحقيقةٌ بسيطةٌ ومُريعةٌ في آن: إنّ استنفاد طاقات الأرض المدفونة إنْ هو إلاّ نذيرٌ على انتهاء أَجَلِ الأرض نفسها.

إنّ الأرض، قبل قيام قيامتها مباشرة، تُبدي لنا صنوفاً من الاستهلاك

---

(١) يتألف ٩٩،٥٪ من صخور الأرض من دزينة من العناصر، بينما يقدّر عدد المعادن الموجودة في باطن الأرض، وهي تتركّز في قشرة الأرض السطحية، بنحوٍ من (٣٠٠٠) معدن، منها (٩٢) عنصر طبيعي، والباقي منها يوجد على شكل مُركّبات، ويرجع الفضل في مكننة العصر الحديث إلى وجود هذه المعادن.

(٢) يقدر أن ٨٠٪ من الاحتياطي المخزون من النفط في العالم سوف يكون قد استهلك عام ٢٠٣٠.
وأما الغاز الطبيعي فلقد قارب على النفاد في الولايات المتحدة، وهو يتوقع نفاده في العالم قبل نفاد النفط.
وأما الفحم، ورغم احتياطيّه العظيم في الكرة الأرضية، فهو لا يتوقع له أن يدوم لأكثر من ١٤٠ عاماً.
إن التزايد العظيم في سكان الأرض، وهو يبلغ معدل تضاعفه، في الوقت الحاضر، كل (٣٥) عاماً وحسب، واستهلاك الناس المتزايد، والمصحوب بالاسراف والتبذير وسوء التعامل مع مصادر الطاقة هذه، كلها أسبابٌ تعجّل بهذا النفاد.
وقد ينظر الإنسان بهلع إلى ما قد ينتظر الأرض عند نفاد النفط منها، من شحّةٍ شديدة في الطاقة. إن تطوير مصادر الطاقة البَديلة، كالطاقة الشمسية والنووية قد يعوض عن هذا النقص، إلا أن النفط، في شِقّه الآخر، مصدراً لما لا يُعدّ من المواد الكيمياوية في كل مجالات الحياة، قد يكون نفاده أكبر خطراً من ذلك بكثير.

والاستنزاف والاستنفاد لكل ثرواتها وطاقاتها، مصحوبةً بأكمل وأكبر زينة وعُمران، نذيراً على نهايتها القريبة. فهي كمن قد أخرج كل ما لديه من أسباب المال والوَجاهة، ثروةً يُظْهِرُ بِها قِمّة مُلكه وغِناه، بقصورٍ مُنيفة وزُخْرُفٍ مُبَهْرَج وزينةٍ من متاع الحياة الدنيا تتلألأ وتنطق بالرُّواء وتشهد باليُسر والمُكنة، مَظهراً أخيراً من قبل أن تضيع، كلها، منه! أو هي كالنار التي يُلقى فيها الوَقود العظيم فيشتدّ أُوارها وسُعارها. كلُّ ذا ليس من باب الاستقرار والديمومة في شيء، بل من باب انطفاء شعلتها لنفاد وقودها!

ووصفُه تعالى لازديان الأرض بالزينة قبل القيامة يذكّرُنا بوصفه للنجوم في السماء الدنيا، أي مجرّتنا نحن، بالزينة:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الحِجْر: ١٦].

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصّافات: ٦].

﴿ . . وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا . . ﴾ [فُصِّلَتِ: ١٢].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا . . ﴾ [قٓ: ٦].

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ . . ﴾ [المُلك: ٥].

وتزيين السماء بالنجوم هو كتزيين المصابيح الكهربائية للأرض في الليل. كلاهما زينة، وكلاهما مما يطلق عليه اسم (المصابيح) التي تزيّن ظلام الليل الدامس، هذه في الأرض وتلك في السماء.

ومن عجبٍ أن آلاف الملايين من المصابيح الكهربائية تزيّن الأرض كل يوم، وهو أمرٌ قد ابتدأ ثم انتشر منذ أن صنع «توماس اديسون» المصباح الكهربائي، أول مرةٍ، عام ١٨٧٩ . إن الأرض لتبدو من بعيد، للقادم إليها من خارجها، في طيارةٍ أو نحوها، وقد زُيّنت بالمصابيح الكهربائية كالنجوم التي تزيّن السماء (المصابيح في التعبير القرآني).

حقاً إن الأرض قد تزيّنت في هذا العصر بما لا يُعدّ من المصابيح الكهربائية. إنها القمّة في الزينة التي عَمّت كل أرجاء الأرض.

إنها صورةٌ رائعة مبهرة للتقدم المادي والجمال المزوّق الذي يعمُّ الأرض التي استكملت زينتها بما لا مزيد عليه، فلقد انتشرت عمارة المدن في كل مكان[1]، وانتشرت معها ناطحات السحاب، والقصور، والأندية، والملاعب، ودور الدراسة والعرض، والشوارع الفسيحة، والميادين العظيمة، والحدائق الغنّاء، بما لا مزيد عليه. وإنّ بعضاً مما يُقام من المنشآت هو مما تقلّ الحاجة إليه أو هو مما لا حاجة ضرورية للناس إليه على الإطلاق، بل هو يقام من باب استيفاء وسائل التفاخر والوجاهة.

وبينما كان بضعة ملايين من الناس يسكنون المعمورة، ثم عشرات ومئات من الملايين يتمركزون في مدن أو مراكز ضيقةٍ ومحدودة، فلقد انتشرت رقعة المسكون، وطغت على الغابات حتى كادت أن تغطّي على وجه الأرض.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾.

إن الآية الكريمة صريحة في أنّها لا تختصُّ بجزءٍ معيّن من الأرض، فهي إذاً عامّة، وتشمل الكرة الأرضية كلها، وكذلك هي تشمل عامّة أهل الأرض. وتُرينا هذه الآية سكّان الأرض وهم قد صاروا إلى حالٍ من القدرة ظنوا معه أنهم قد تمكنوا منها وسيطروا عليها. ولقد شهد القرن العشرون سيطرةً للإنسان على الأرض مذهلةً ومتسارعة مقارنة بالملايين من الأعوام التي سبقتها، لا بل قد شهد العقد الأخير من القرن الأخير للألف الثانية للميلاد أُحاديةً للقُوّةِ في العالم عظيمةً وكما لم يحدث من قبل.

---

(١) بل لقد تطاول الحفاةُ العراةُ العالَةُ رعاءُ الشّاءِ بالبنيان، عماراتٍ سامقةً يُقيمونها في الصحارى القاحلة، وهو تحققٌ عجيب لما قد جاَء في الحديث عن رسول الله (ص) عن أشراط الساعة. انظر ص ٥٣.

الاستيطان والاسترقاق والاستعمار

لقد جاب الإنسانُ أرجاءَ الأرض واستوطنها، ولم تبق منها بقعةٌ لم يصل إليها ويسيطر عليها. فلقد هاجر الأوربيون إلى القارّات الثلاث (الأمريكتين واستراليا) واستوطنوها، ولم يجىء مقتبلُ هذا القرن إلاّ وقد انتشر الاستعمار وأناخ بكلكله على جهات الأرض الأربع، وقام الإنسان باستغلال مناطقَ واسعةً من الأرض، مستنزفاً مواردها بسرعة مذهلة.

وسائل الانتقال

وسيطر الإنسان على الأرض من خلال تملّكه لوسائل النقل البرّية الآلية كالسيارات والقطارات، والبحرية كالسفن والغواصات، والجوية كالبالونات ثم الطيارات ثم الصواريخ عابرة القارات، أو ما أُسميَ بحرب النجوم، ثم الصواريخ يوجهها الإنسان خارج الأرض، وقد سيطر من خلالها، وبسهولة نسبية، على أرجاء الأرض.

وسائل الاتصال

وهو تَمَلَّكَ وسائلَ الاتصال، من سلكية ولاسلكية، ومن راديو وتلفزةٍ وغيرها، وهي تنقل ما شاء من المعلومات المسموعة والمرئية والمقروءة بسرعة الضوء، ثم هو صار من بعد ذلك ينقلها عبر الأقمار الصناعية وبلمح البصر.

الأسلحة التدميرية

قام الإنسان بصنع وتطوير الأسلحة ذات المفعول الميكانيكي التدميري، كالمدافع والدبابات والغواصات والطيارات العسكرية، ثم هو قام بصنع السموم التي يطلق عليها تجوّزاً اسم «الأسلحة» الجرثومية والكيماوية والنووية وأشعة الليزر

الفتاكـة التي يسيطر من خلالهـا على البشريـة أو يهـدِّدُها بينما هو يصطنع ما قد أسماه بالسلام القائم على ميزان الرعب النووي المتبادل سيفاً مُسْلطاً على رقاب الإنسانية، وهو صنع من الأسلحة ما يكفي لتدمير الحياة على الكرة الأرضية مراتٍ عديدة[1]، [2].

ولقد سيطر الإنسان على الجو والبحر مثلما هو سيطر على البر. ومثلما هو سيطر على الأرض ومواردها فهو قد استعبد أخاه الإنسان بالاسترقاق أو بالعبودية المستترة والمقنّعة، أو بجعله «بُرْغِيّاً» صغيراً تافهاً في ماكنةٍ جهنمية عملاقة تهيمنُ عليه وهي لا يملك من أسْرِها هرباً ولا فكاكاً.

ولم يكتفِ الإنسان بالسيطرة على ما يحيط به مما يراه، بل هو صار أيضاً إلى معرفة واستغلال الجزيئات والذرّات، بل ومكوّنات الذرة نفسها، ثم إن معرفته بجسمه قد ازدادت، وبأعضائه وأنسجته وخلاياه، وبوظائفه وكيميائه، وهو قد عرف نواة الخلية والصِّبغيات (الكروموسومات) والجينات، لا بل قد توصّل إلى التلاعب بالجينات فيما قد أُسمي بـ «الهندسة الوراثية» و«الاستنساخ».

تلك هي بعضٌ من الأمثلة على سيطرة الإنسان على الأرض. إلاّ أنها، وهي لا شك وسائلُ تبهر الأنفاس وتعجب الأنفسُ لعظمتها، تبقى وسائل قاصرة، وقاصرة جداً.

إنها تبقى سيطرةً ضعيفةً وقاصرة، مقارنةً بالقُدرة الإلَهية القادرة، والأولى مكتسبةٌ من الثانية. فالأولى محدودة وفانية، وهي موهوبة من الله تعالى للناس، فهي

---

(١) بلغ وزن ١٠٠ ألف قنبلة «اعتيادية» فُجّرت في الحرب العالمية الثانية ما بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٥ ما مجموعه مليوني طُنّ (٢ ميغا طن)، وهي نجد طاقتها التفجيرية الآن مع قنبلة نووية واحدة تعادل كل قنابل تلك الحرب! وقوة المخزون من الأسلحة النووية الآن تعادل مليون قنبلة من قنابل هيروشيما، وهو ما يكفي لتدمير الأرض في ساعات قليلة بل ومقتل ١٠٠ مليار إنسان.

(٢) تبلغ ميزانية منظمة الصحة العالمية السنوية ما يعادل مصروفات العالم على الأسلحة في ٣ ساعات فقط. BMJ, 1993; 307:393-4.

أمانة مستَرَدّة، وهي لا يدري أحدٌ متى يكون ذلك. وأما الثانية فهي قدرةٌ غير محدودة ولا نهائية. وهي أبدية، لأنها قدرة رب العباد القادر على كل شيء.

وأول ما يتبادر إلى الذهن هنا هو أن الإنسان قاصر عن أن يقدر على نفسه بنفسه! هو لم يهب لنفسه الحياة، وهو لم يولد برغبةٍ منه، كما أنه ميت، حتف أنفه، لا يدري أين ومتى، يستوي في ذلك كل العباد، وهو لا يملك للمرض منعاً ولا للموت دفعاً. بل وأكثر من ذلك: إذ ﴿. . وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . ﴾ [لقمان: ٣٤].

ولقد وهب تعالى وسائل القوة للناس، في العصر الحاضر، إلا أنهم قد استغلّوها أسوأ استغلالٍ وأبشعه، لا بل ومِن عجبٍ، إنّ من الجليّ أنه كلما ازدادت قدرة الإنسان كلما تكاثرت مشاكله ومصائبه. إن الناس هم اليوم قادرون، بالوسائل التي هي بأيديهم، على تدمير أنفسهم وتدمير الحياة على الأرض بأكثر من قدرتهم على حمايتها ومنع تدميرها، وبما لا يقاس. وهي مفارقةٌ تستجلب الانتباه، وتدلّ على قصر نظر الإنسان، غالباً، وعلى سوء تدبيره، والمصير البائس الذي ينتظر البشرية.

نعم إن الإنسان لَقادر، ولكن على تدمير الأرض!، ولكنه غيرُ قادر على حمايتها حتى من زلزالٍ صغير أو إعصار مدمّر أو فيضان طاغٍ أو جفاف مُمْحِل أو نيزك صغير يضرب الأرض، فكيف به يوم القيامة الذي تُبَدَّلُ الأرضُ فيه غير الأرضِ والسماوات؟

فبقَدَرِ ما يظنُّ ظانٌّ أنّه قد قَدَر على الأرض وسيطر عليها فذلك ظنٌّ غير صحيح. إذ أنه ليس بقادرٍ على أمرها في شيء. إنه ظنٌّ ولا أكبر من الظن ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

إنّ الآية الكريمة تُشير، فيما نراه، إلى سيطرةٍ ظاهرة للإنسان على الأرض قبل يوم القيامة يظن الإنسان معها أنه قد قدر عليها، وما هو على ذلك أو على نفسه

بقادرٍ، في حقيقة الأمر، في شيءٍ من الأمر أبداً، لأن الأمرَ كله لله وحده.

﴿ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارًا ﴾.

نحن نرى في قوله تعالى إشارةً إلى يوم القيامة. فيصير المعنى أن موعد يوم القيامة التي استأثر سبحانه، وحده، بعلمه تسبقه أشراط، أو علامات، ذكرتها هذه الآية مما قد شرحناه. فإذا تحققت هذه الأشراط فلقد اقتربت القيامة، إذاً، كثيراً.

ولقد ظل الناس يعتقدون، قبل معرفتهم بكروية الأرض، أن القيامة تقوم، بالنسبة إلى أيٍّ منهم، ليلاً أو نهاراً، وهو أمر صحيح.

إلا أن الآية الكريمة تُشير، فوق ذلك، إلى أمرٍ آخرَ معجز. فهي تدل على كروية الأرض، وأنه بينما يكون نصفها، يوم القيامة، في ليل، فإن نصفها الآخر يكون عندئذ في نهار.

(٢) الغفلة وعدم الإيمان

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ.
أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ.
وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ.
إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [مريم: ٣٧ ـ ٤٠].

أسمِـعْ بهم وأبصِرْ: أي ما أسمَعَهُم وما أبصرهم يوم القيامة.
الحسرة: الندامة الشديدة على ما فات.
يوم الحسرة: يوم القيامة.

نرى، والله أعلم، أن الآية تدل على حال الناس قبل قيام الساعة الوشيك:

١ ـ فَـهُم، حينئذٍ، في غفلة.
٢ ـ وهم لا يؤمنون.

ولقد قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

فإذا كانت العِلّة من خلق الإنس والجن هي عبادة الله تعالى، فإن عدم إيمان الناس يعني انتفاء الغرض من وجودهم. وإذا ابتعد الناس، كلهم، عن الإيمان بالله فإن قيامتهم قد أزِفَت.

(٣) عذابٌ أو هلاك

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٨].

والقرى هي المدن، والمقصود بها الأرض كل الأرض.

تُشير الآية الكريمة إلى أمرين اثنين يصيبان الأرض قبل قيام قيامتها:

١ ـ فقسمٌ منها يُهلكه الله تعالى.

٢ ـ والقسم الآخر منها، إن هو بقي، يعذّبه الله سبحانه بالعذاب الشديد. والعذاب، في صوره التي نعرفها، قد يكون بالأوبئة أو الأمراض الأخرى، والفتن، والحروب بالأسلحة الفتّاكة المدمرة، والزلازل، والفيضانات، والحرائق، والأعاصير، والحجارة من السماء، أو «النيازك» التي تضرب الأرض. وقد يكون عذاب الله تعالى للناس ببعضٍ من هذه الأمور أو كلها أو بما يشبه ذلك أو غيره.

وإننا نرى في الآية الكريمة نذيراً على ما ينتظر الأرض ومَن عليها إن هي استمرت في مسيرتها الجديبة الجاحدة التي ما فتئت تزداد طغياناً وكفراً.

ولماذا يَعُمُّ العذابُ الناس، كل الناس، يومئذ؟

والجواب: هو أنهم قد ابتعدوا عن الله تعالى، ورانت على قلوبهم الغفلة، فنسوا الله ربهم وخالقهم، وعندها لا يعود للحياة على الأرض من معنى، وهو ما نجده فيما قد جاء عن رسول الله (ص) من أنه قال: لا تقوم الساعة حتى لا يُقال لا إلّه إلا الله في الأرض. وقانا الله تعالى من ذلك كله..

(٤) الاختصام

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ.
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ.
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: ٤٩-٥١].

قال الشيخ مغنية: «﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهي صيحة البعث والنشر ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ يتشاجرون ويتنافسون على الدنايا والشهوات ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ كناية عن النشور. والأجداث: القبور، ويَنسِلُون: يُسرعون في العَدْو».

وقال الشيخ مخلوف: «﴿ مَا يَنظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظرون ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هي نفخة الصعق التي يموت بها أهل الأرض ﴿ تَأْخُذُهُمْ ﴾ تقهرهم ﴿ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ يتخاصمون ويتنازعون فيما انهمكوا فيه من شؤون الدنيا، غافلين عن الآخرة ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ نفخة البعث».

فهل إن المقصود من قوله تعالى: ﴿ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هو صيحة البعث أم صيحة الصعق؟

إن هذه الصيحة الواحدة تأخذ الناس، فجأة، وهم يتخاصمون، والخصام لا يكون إلاّ في الحياة الدنيا، إذ لا خصام ما بين صيحتي الصعق والبعث، والناس حينئذٍ جميعاً أموات، فوجب أن تكون هذه الصيحة هي صيحة الصعق والموت، لا صيحة البعث.

وهذه الآية الكريمة صريحة في دلالتها على حال الناس قبل قيام قيامهم: إنهم، كلهم، يومئذٍ، في مخاصمات، ومنازعات، وحروب طاحنة لا أول لها ولا آخر تعُمُّ العالم بأسره، وتطحن الصغير والكبير، كل ذلك ليس من باب إحقاق حق أو نصرة مظلوم، بل بسبب البعد، كل البعد، عن الله تعالى، وعن منهجه الذي شرعه للناس، حتى ليصير الاختصام يومئذٍ صفةً عامة لأهل الأرض.

(٥) الدابّة تكلم الناس

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢].

إنّ خروج الدّابّة من أشراط الساعة الكبرى التي تقارب قيام الساعة مقاربةً وشيكة، وقد جاءت بها الأحاديث الشريفة.

﴿ وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ وجبَ الغضبُ عليهم، قاله قتادة. وقال مجاهد: أي حقَّ القولُ عليهم بأنهم لا يُؤمنون.

والدّابة هي كل ما دبّ على سطح الأرض، فهي ليست اسماً لنوعٍ من الحيوان بعينه.

وما هي العِبرةُ في أن تكون المتحدثة هي «الدّابة»؟

يبتعد الناس يومئذ عن الله تعالى، ورُغْمَ ما قد وهبهم سبحانه من عقلٍ قد فاقوا به كل مخلوقاته، وعلى ما بيَّنَ لهم من أسرار الكون، والحياة، والخَلْق، ورغم كل آياته ومعجزاته، فإنهم يصيرون عنها عمياناً، فكأنها لم توجد، وكأنْ لم تكن لهم عقولٌ يفقهون بها، أو آذانٌ يسمعون بها، أو أعينٌ يُبصرون بها، وذلك يجعلهم كالبهائم، أو الدّواب، التي لا تعقل شيئاً ذا بال، ولقد قال الحقّ سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢] ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٥].

وإذا صار الناس، آخر الزمان، كالدّواب، فإنّ الله تعالى مُخرِجٌ لهم يومئذٍ دابّةً تكلمهم بلسانهم فتفضحهم، وتُخزيهم، وتُقيم عليهم الحجّة والبرهان، وُتدينهم ولات حين مناص، إذ لا ينفعُ نفساً يومئذٍ إيمانها أنْ لم تكن آمنت من قبل.

(٦) خروج يأجوج ومأجوج

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا . فَأَتْبَعَ سَبَبًا . حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا . قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا . وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا . ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا . حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا . كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا . ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا . حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا . قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا . قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا . ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا . وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾ [الكهف: ٨٣ ـ ١٠٠].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ . وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧].

مغرب الشمس: أقصى ما يصله الإنسان على اليابسة عند اتجاهه غرباً.

عينٍ حَمِئَةٍ: الحَمَأ هو الطين الأسود، أي انتهى ذو القرنين في سيره نحو غرب الأرض إلى بحر على شاطىء بحر أسود بحيث يتراءىٰ للعين أن الشمس تغيب فيه وتختفي.

مطلِع الشمس: أقصى ما يصله الإنسان على اليابسة عند اتجاهه شرقاً.

السَّدّين: الجبلين.

خَرْجاً: الخَرْج ـ الجُعْل من المال.

ردماً: سدًّا وحاجزاً.

زُبَر الحديد: قِطَعاً منه.

الصَّدَفين: جانبي الجبلَيْن المحيطَيْن بالفتحة التي سدّها.

انفخوا: أشعلوا النار على السدّ وانفخوا فيها بالكير.

القِطْر: النحاس المذاب.

يَظهروه: يصعدوا عليه.

نَقْباً: خرقاً.

دَكّاء: مستوياً مع الأرض كأنْ لم يكن.

يموج: يختلط ويضطرب.

الحَدَب: المرتفع من الأرض كالجبل أو الأكمة.

يَنْسِلُون: يُسرعون في السير، من النَسْل وهو مقاربة الخطو مع الإسراع.

شاخصة: مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من شدة الهول.

سأل اليهودُ رسولَ الله (ص) عن ذي القرنين فتنزّل عليه الوحي بالجواب. وتشير هذه الآيات إلى أن ذا القرنين كان عبداً مؤمناً صالحاً مَلَّكَهُ الله الأرض، وأعطاه من العلم والحكمة الشيء الكثير، وهيأ له من أسباب القوة والسلطان من كل سبب. وقيل إنه قد سمّي بذي القرنين لبلوغه المشرق والمغرب، فكأنه قد حاز قَرْني الدنيا. وقول ذي القرنين عن السد: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ يدل على أنه كان ذا علم بالوحي الإلَهي المُنَزَّل، وقد يكون ذلك مما قد تنزّل على مَن قَبله من الرسل في كتب الله تعالى السابقة مما قد اطلع عليه، أو هو مما قد تنزّل عليه هو، أي أنه نبي، ويشهد لذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

سار ذو القرنين حتى وصل أقصى اليابسة من جهة المغرب، أي محل اتصالها بالبحر. وقوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ يدل على

أن ذا القرنين قد انتهى في سيره إلى بحرٍ على شاطئه طين أسود يتراءى للعين أن الشمس تغيب فيه وتختفي[1]، وهو ما يمكن أن يكون شاطىء غربي إفريقية على المحيط الأطلسي[2].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يدل على أن ذا القرنين قد ابتدأ رحلة جديدة بعد ذلك مجاهداً في سبيل الله وداعياً إليه، وأنه قد عاد متّجهاً نحو الشرق في رحلته الجديدة فبلغ، في ذلك الوقت، أقصى ما يمكن أن يُوصَل إليه في ذلك الاتجاه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ. . ﴾، إلا أن قوله تعالى: ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، أي ليس لهم ما يستترون به من الشمس من لِباس أو بناء، فَهُم عراةٌ أو كالعراة، وهم يسكنون الأسراب والكهوف في نهاية المعمورة من جهة المشرق، وهو ما يشير إلى احتمال كونهم من سكان المناطق الاستوائية الحارة، يمكن أن يكون ذلك دليلاً على كونهم في أقصى جنوبي شرقي آسيا من جهة البحر، كما أنه يدل على تأخرهم بالمقارنة مع بقية المناطق التي زارها ذو القرنين. هذا ومعلوم أن الشرق الأوسط هو مهد الحضارة في بدئها ونشأتها، وهو دليل آخر على أن القوم الذين رآهم ذو القرنين في رحلته الثانية لم يكونوا من سكان الشرق الأوسط بل هم كانوا في أقاصي الشرق، أو «الشرق الأقصى».

وقوله تعالى مرة أخرى ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يشير إلى مرحلةٍ جديدة، إلى رحلة ثالثة أُخرى. وإذا كان ذو القرنين قد وصل إلى نهاية المعمورة اليابسة من جهة الجنوب الشرقي، وهو جنوبي شرقي آسيا، فأين يمكن أن تكون وجهته الأخيرة؟

هو لم يرجع، طبعاً، نحو الغرب، مجدداً. لأن رحلته لن تكون، حينئذٍ، رحلةً جديدة كالتي أشار إليها تعالى، بل هي سوف تكون رجوعاً محضاً، وبما أنه قد اتجه نحو قومَيْ يأجوج ومأجوج، وهم ممن يَلُون الجبال، فإنه يكون قد اتجه نحو

---

(١) لاحظ أن الأقدمين قد أسموه ببحر الظلمات، وهو اسم يتّفق والوصف القرآني.

(٢) ولاحظ أن الاسم الآخر لمراكش هو «المغرب»، أو موضع غروب الشمس، وهي تقع في أقصى الغرب من إفريقية.

اليابسة، وهذا لا يكون إذا هو كان اتّجه نحو الجنوب، ذلك لأنه بحر. فلا يبقى إلا احتمالٌ واحد وهو أنه قد اتجه شمالاً أو نحو الشمال الغربي، أي ما يمكن أن يكون باتجاه شمالي الصين والاتحاد السوفييتي السابق.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ أي بين جبلين في المنطقة المذكورة[1]، ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾، لم يفهم ذو القرنين لغتهم ولم يفهموا لغته، ولم يجيء ذكر مثل ذلك في رحلتيه الأوليَيْن، وهو ما قد يدل على وجود بعض التشابه بين لغات أواسط وغربي وجنوبي شرقي آسيا في ذلك الوقت بما يسمح ببعض التفاهم، على عكس ما قد وجد ذو القرنين في رحلته الأخيرة، فلا بدّ من أن لغة القوم قرب سد يأجوج ومأجوج كانت بعيدة جداً عن لغات الأقوام الذين رآهم ذو القرنين في رحلتيه السابقتين، أو أنهم دون غيرهم من الناس في تحضّرهم.

وقوله سبحانه ﴿إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يشير إلى إفساد هاتين الأمتين للأرض بالاجتياح في سابق الزمان وهو ما سوف يتكرر قبل يوم القيامة بزمنٍ وشيك.

ودَكُّ الجبل والسّد بأمر الله تعالى يمكن أن يكون بالزلازل بين يدي يوم القيامة، أو بغيرها، لا بل إنه قد يكون نتيجة هجوم بالأسلحة التدميرية كالقنابل النووية والنيوترونية وأسلحة الليزر وغيرها، أي أنها قد تكون حرباً عالمية ماحقة شاملة لا نرى فيها إلا الحرب العالمية القادمة، أي أنها حرب عالمية «ثالثة» وأخيرة في الوقت نفسه، ذلك لأن أسلحة التدمير الموجودة حالياً لا تحتمل حرباً عالمية أخرى جديدة من دون تدميرٍ للأرض ومن عليها، وبما يُفضي إلى نهاية الحياة على الأرض أو يكاد.

---

(١) جاء في مجلة (العربي) العدد ١٨٤ ص ١٣٤ أن الجبلين في القوقاز، وقد نقل عبدالمنعم النمر مدير البعثات والثقافة بالأزهر عن أبي الكلام آزاد أن الموطن الأصلي ليأجوج ومأجوج منغوليا وقبائلها الرحّل، وأن مكان السد بين بحر قزوين والبحر الأسود حيث توجد جبال القوقاز، وأن سد الصين غير سد ذي القرنين لأن الأول بني سنة ٢٦٤ ق.م. والثاني في القرن السادس ق.م.
هذا ولقد اختلف العلماء في هوية ذي القرنين وحقيقته دون أن يتوصلوا إلى نتيجة مقنعة

وقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ ﴾ يحتمل أحد معنيين:

● فامّا أن يكون المقصود بـ(وعد ربي) هو يوم القيامة الذي تصير فيه الأرض قاعاً صفصفاً، أي أرضاً مستوية من دون مرتفعات أو منحدرات، وعندها يكون المقصود من قول ذي القرنين أن هذا السدّ الذي بناه من الحديد والنحاس، ورغم قوته، يُدَكّ يوم القيامة دكاً ككل ما في الأرض من جبال، فيصير المعنى: رغم ما ترونه أيها الناس من قوة هذا السر العظيم ومنعته البالغة فإن الله تعالى يدكّه يوم القيامة ككل شيء آخر على وجه الأرض.

● أو أن يكون المقصود بقوله (وعد ربي) هو الميقات المعلوم الذي قد حدده تعالى لنهاية هذا السد بدكّه قبل يوم القيامة، فيكون عندها علامةً كبرى من علائم الساعة، أي علامةً على حدوثها الوشيك.

● لا بل قد ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بذلك هو ما بعد الصيحة الثانية، أي ليس صيحة الصعق التي يموت فيها كل مخلوق بل نفخة البعث.

فأي هذه التفاسير هو الصحيح؟

نحن نتقصّى الجواب على الجواب على ذلك لأن دكّ السد يترافق مع خروج يأجوج ومأجوج. وإذا كان ذلك يحدث يوم القيامة، لا قبله، فيصير المقصود بخروجهم الخروج من الأجداث، وذلك لا يكون إلاّ جزءاً من خروج الخلائق أجمعين، وعندها لا يكون، في تلك الحال، من معنى لذكر خروج يأجوج ومأجوج إلاّ كثرتُهم الكاثرة. فهل أنّ ذلك صحيح؟

إنّ القرآن لَيُفَسِّر بعضهُ بعضاً، ونحن نرى أنّ مفتاح تفسير هذه الآية من سورة الكهف هو في قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ . وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ . . ﴾[1].

---

(١) جاء في الحديث الشريف (يخرج يأجوج ومأجوج في عدد لا يحصيه إلا الذي خلقهم) إيماءً إلى عددهم العظيم.

إن خراب السد وخروج هاتين الطائفتين واجتياحهم للعالم إنما هو، وبنص القرآن الكريم، علامةٌ على اقتراب الوعد الحق، أي يوم القيامة، وليس هو ما يحدث في يوم القيامة نفسه. ويؤيد ذلك أن خروج يأجوج ومأجوج وهو من أشراط الساعة الكبرى التي قد جاء بها الحديث الشريف واستفاض العلم بها، باعتبارها من علامات حدوثها الوشيك.

نتيجة:

إن دك السد وخروج يأجوج ومأجوج هو علامة من علامات قيام الساعة الوشيك، وهو ليس مما يحدث في يوم القيامة نفسه.

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾، أي عند خروجهم، لا يوم القيامة. وإذا كانت الأُمّتان (يأجوج) و(مأجوج) أُمّتين اثنتين عظيمتين في تعدادهما فإن قوله تعالى (يموج) يشير فوق أمر خروجهم إلى الاضطراب العظيم ودخول بعضهم في بعض وإنما بالحرب وليس بالسلم، وإلى اهتياج النفوس واهتزاز الأمور بما لا مزيد عليه. هو خروجٌ، لا شك، ليس بالخروج السلمي، فهو ليس بالرحلة أو الهجرة الجماعية السلمية، بل هو حرب اجتياحية شاملة ذات شَرٍّ مسْتطير يلفّ العالم كله، وهي لا بدّ أن ترافقها كل مظاهر العنف والقهر، والبطش والظلم، وإهلاك الحرث والنسل، وبما قد يذكّرنا، وبما لا يقاس، بالحروب الكونية الحديثة التي قد عرفناها وبالأسلحة الفتاكة من نووية وغيرها ممّا قد حازه الإنسان في عصره الحديث. وإذا عطفنا ذلك على قوله تعالى: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ لأمكن لنا أن نخرج بالأمور التالية:

إن هناك أُمّتين مفسدتين هما (يأجوج) و(مأجوج)[1].

وهما تجتاحان الأرض قبل قيام الساعة بزمن قصير مثلما قد سَبَقَ منهما تاريخٌ قديمٌ للفساد في الأرض والحرب وإشاعة الخراب والدمار.

---

(١) جاء عن حذيفة (رض)، عن رسول الله (ص)، قال: (يأجوج أُمّة، ومأجوج أُمة).

وإنّ الجموع الغفيرة من هاتين الأُمّتين المفسدتين تنحدر من الأكمات والجبال نحو السهول.

ولمّا كانت الآية الكريمة تخاطب المسلمين فإن (يأجوج) و(مأجوج) يجب أن تكونا، لا شك، من خارج بلاد المسلمين التي تمتد من أواسط آسيا شرقاً وحتى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جنوبي روسيا وجيرانها شمالاً وحتى المحيط الهندي جنوباً.

وإنّ قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ يشير إلى كثرةٍ كاثرة من هؤلاء، وبما لا يوفّر جبلاً من الجبال، بل هم يُغرقونها، كلها، بأعدادهم الهائلة.

كما تدل الآية الكريمة على أنّ عدد سكان الأرض يزداد، قبل قيام الساعة، زيادةً عظيمة، فهو علامةٌ وشيكة من علاماتها، وهي معجزةٌ قرآنية سنتناولها بالبحث بعد قليل.

وَوَصْفُه سبحانه لخروج هؤلاء الأقوام بقوله: (يَنْسِلُون) يذكّرنا بوصفه تعالى لخروج الموتى السريع من الأجداث بعد الصيحة الثانية بالوصف نفسه وهو (النَّسْل)[1]، والذي هو، وكما قد قلنا، الإسراع في المشي مع مقاربة الخطى، لا بل إنّه يذكّرنا بالأسراب العظيمة من الجراد المنتشر الذي يجتاح الأرض فيُفجئك

---

(١) يخرج الموتى من القبور، بزجرة واحدة، وبأعداد هائلة، سراعاً، ويسيرون سراعاً:
﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا..﴾ [قٓ: ٤٤].
﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ. مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ..﴾ [القمر: ٧و٨].
مُهطعين: مسرعين.
﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ. فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ و١٤].
﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].
﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].
﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]
مقنعي رؤوسهم: رافعيها إلى السماء مع إدامة النظر بأبصارهم إلى ما بين أيديهم مِن غير التفاتٍ إلى شيء.

بالأعداد الغفيرة التي تُغطّي مجال النظر فلا تعرف من أين جاءت، وهي لا تكاد تُبقي على شيءٍ مما يصادفها مِن زرع.

ما هو تفسير (النسل) من ناحيةٍ طِبية؟

فأمّا الإسراع فهو مفهوم، وهو في حالة (يأجوج) و(مأجوج) سببه الاجتياح لغرض الحرب[1]، وأما يوم القيامة فهو لإجابة دعوة الديّان.

ولكن، إذا كان الإنسان يطلب الإسراع في مشيه فعَلام هو يُقارب من خَطْوِه، وهو ما قد يؤدي إلى التقليل من السرعة؟

إنّ السبب المعروف لمقاربة الخَطو في الطبّ، عند الأصحّاء من الناس، هو قِصَر القامة. فهل إنّ يأجوج ومأجوج هم من قصار الناس، كالشعوب «الصفراء» مثلاً؟

إننا لا ندري عن هذا الأمر شيئاً يسمح لنا بترجيح هذا الرأي على ذاك، والسبب في ذلك هو أن الناس، يوم الحشر، هم (يَنْسِلُون) أيضاً، وهم عند ذاك الخلائقُ كلها وليس الجنس الأصفر وحده، كما أنه لا سبب هناك للظن بأن الناس يكونون، يوم القيامة، قصيري القامة، ذلك لأنهم لا يُبعثون أطفالاً ولا شيوخاً.

وسببٌ آخر، غير طبّي، لِمقاربة الخطو.

إنه الزُّحام، والزحام الشديد، وبما لا يفسح في المجال للإنسان بمدّ خطواته بما يكفيه، لأن مجال الحركة من حوله ضيّقٌ جداً، بل هو شبه معدوم، وهو أمرٌ متوقع ومعروف، عند البعث كما ما قبل يوم القيامة.

وأما قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا. وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى

---

(١) ونحن لا نعرف حرباً لم تلعب سرعة الهجوم فيها الدور الأساسي، فالمبادأة والمباغتة هي من أسس الحرب، ثم إن الروح العدائية الهجومية هي في طبيعتها انفعالية اهتياجية وسريعة التأجج، هذا إلى أن أشرار الناس هم أسرع وأقوى حَمِيَّةً إلى الشر منهم إلى الخير.

﴿غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فهما يشيران إلى ما يلي ذلك: إلى يوم القيامة نفسه، وبالذات إلى نفخة الصور الثانية التي تبعث الناس من قبورهم.

في يأجوج ومأجوج

● قال صاحب «التفسير المبين»: ربما يكون «يأجوج» و«مأجوج» مُشتقّتين من الأجيج، بمعنى نار الفتنة والفساد في الأرض، وعليه تكونان إشارةً إلى دولةٍ تسيطر بسلاحها المدمّر على أهل الأرض بكاملها، فتُهلِك الحرث والنسل، وعندئذٍ تقوم القيامة.

● وقال المُراغيّ في تفسيره أن يأجوج هم التتر، ومأجوج هم المغول، وأن أصلهما من أبٍ واحد، وهم كانوا يسكنون الجزء الشمالي من آسيا.

وأقول إن المغول هم أنفسهم المنغول (Mongol)، كما أن التتر والتتار واحد.

● جاء في سِفر الرؤيا من «العهد الجديد» أن يأجوج (Gog) ومأجوج (Magog) هما أُمّتان يقودهما الشيطان وتحاربان مملكة الله.

● إن من ينظر في أصول الأُمم القديمة وتاريخها يلحظ تبدّل أسماء الأمم والأماكن مع مرور الزمان، وما قد لا نكون نعلمه من أسماء الأمم والأماكن اليوم قد لا يكون كذلك في تاريخها القديم في مكانٍ معيّنٍ منها.

● إننا قد نلحظ تشابهاً بين لفظ كلمتي «يأجوج» و«مأجوج» وبين ألفاظ بعض اللغات كالصينية واليابانية مثلاً.

لقد اختلف المفسرون والباحثون في حقيقة «يأجوج» و«مأجوج» مثلما هم قد اختلفوا في هوية ذي القرنين وفي السد الذي بناه. ونحن لا نملك أن نضيف هنا شيئاً إلا أن نقول بأن ذلك قد يكون هو نفسُه بعضاً من أسرار الساعة التي استأثر تعالى بعلمها.

لقد جاء القرآن الكريم بآيـةٍ معجزة:

١ ـ على ازدياد سكان الأرض زيادةً هائلة في المستقبل من الزمان ممّا يلي بعثة النبي (ص)، وبما لم يخطر ببال أحد، لا بل وحتى القرن الثامن عشر.

٢ ـ وعلى الفساد العظيم والشامل الذي يعقب ذلك.

حقّاً لقد اقتربت الساعة. وإذا كان الحَقُّ سبحانه قد قال قبل أكثر من (١٤) قرناً (اقتربت الساعة)، فلقد اقتربت إذاً كثيراً في زماننا الحاضر، وإنّ ازدياد سكان المعمورة الرهيب، وبما يصاحبه من الفساد في الأرض واستنزاف مساحاتها وخيراتها، لَيُؤْذِنُ بالنهاية القريبة لها.

وبينما إننا نعرف التوزيع السكاني والجغرافي للأرض في زمننا الحاضر، فإن ذلك لا يسمح، فيما يختص المستقبل، بأكثر من توقعاتٍ مَحْضَةٍ تنبني على أساس الحاضر والماضي القريب وعلى النّزر اليسير من الماضي السحيق. لكنها، وبسبب التسارع الكبير للتغيّرات العنيفة التي تشهدها المعمورة، ليست إلاّ رجماً بالغيب حول مستقبلٍ مجهول ومجهول حقاً، وهو ما لا نعرف من تفاصيله، أي قبل قيام القيامة بقليل، إلا ما قد أنبأنا به تعالى عن ذلك الفساد الكبير الذي يصاحب اجتياحاً عظيماً لأُمّتين كبيرتين من الأرض من أعالي الجبال نحو السهول التي قد تكون سهول آسيا من جهة الغرب.

إنّ هذه الصعوبة الشديدة في تحديد هاتين الأمّتين وتاريخ انبعاثهما المفسد هي بقدر استحالة معرفة موعد قيام الساعة، لأن هذه مرتبطةٌ بذاك.

ثانياً ـ ما قبل القيامة

في حديث رسول الله (ص)

جاءت أحاديث رسول الله (ص) عن آخر الزمان تفصيلاً وتوضيحاً لِما جاء في كتاب الله تعالى، ونحن هنا نذكر طرفاً يسيراً منها بما قد يكفي لتكوين فكرةٍ عامّة عن هذا الموضوع، إذ لم يُـرَد لهذا الكتاب أن يكون جامعاً.

● خَرَّجَ مُسلمٌ عن رسول الله (ص) عن إمارات الساعة قوله (أنْ ترى الحُفاةَ العُراةَ العالَة رِعاءَ الشّاء يتطاولون في البنيان).

العالة: يقال هو عالةٌ على غيره، أي لا يَسْتَقِلُّ بأمرِه.

ويروعك في هذا الحَديث الشريف ذلك التضادّ العظيم الذي ترسمه هذه الصورة المُوجِلة: قمّة الفقر والعَوَز التي يرسُمها قوله (حفاة. عراة. عالة. رعاء الشاء، وهم البدو الرُّحَّل في الصحراء) يقابلها ارتفاعهم، بعدئذٍ، بالبنيان العظيم بما لم يَدُرْ في قلب بشرٍ من قبل، عماراتٍ تقوم بالعشرات والعشرات من الطوابق، وأين؟ في رمال الصحراء القاحلة نفسها!

جاء في موسوعة «كولبير» الأمريكية أن تشييد وإقامة العمارات السامقة، أو «ناطحات السحاب»، قد ابتدأ في العصر الحديث فقط، ذلك لأن بناءها يحتاج إلى هياكلَ قويـةٍ من الفولاذ، ثم إنها تحتاج إلى مصاعدَ كهربائيـةٍ من أجل أن يصير استعمالها عملياً، وهما شيئان لم يتوفرا إلا بحلول القرن التاسع عشر. وهي قد

ظهرت، أساساً، بسبب الحاجة الماسّة إلىٰ الأراضي في المدن الغربية. أما في الصحارى العربية التي أشار إليها حديث رسول الله (ص) فلقد ظهر بناء العمارات العالية وانتشر في النصف الثاني من القرن الأخير للألف الثانية من الميلاد. إن توفر الوسائل المشار إليها لبناء هذه العمارات لا يكفي وحده. إذ لا بدّ، لإقامتها، من المال، والمال الوفير، والذي هو الآخر قد توفّر، وعلى أوضح ما يكون، في المناطق النفطية، في الزمن ذاته. وإذا كان الحديث الشريف يشير إلى زمن اقتراب الساعة، فإن ذلك الزمن هو، أيضاً، زمن المال الوفير، زمن النفط، أو زمن اكتشاف آبار النفط واستخراجه الوفير منها.

● «تُقْبَضُ روحُ كلِّ مؤمنٍ وكلِ مسلم، ويبقى شِرارُ الناس يتهارَجُونَ تَهارُجَ الحُمُر فعليهم تقوم الساعة». رواه مسلم، أي يُجامع الرجالُ النساء علانيةً بحضرة الناس، كما تفعل الحمير ولا يكترثون لذلك.

● «فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقالُ ذرّةٍ من خيرٍ أو إيمانٍ إلاّ قَبَضَتْه.. فيبقى شِرارُ الناس في خِفّةِ الطير (أي يكونون في سرعتهم إلىٰ الشر والفساد كطيران الطير وفي العَدْوِ خلف بعضهم بعضاً) وأحلامِ السِّباع (كأحلام السباع العادِيَة) لا يعرفون معروفاً ولا يُنكِرُون منكَراً».

وأقول إن الكثير مما قد ورد في هذه الأحاديث موجودٌ فعلاً في بعض المجتمعات الآن.

● «لا تقوم الساعة حتى يفيض المال، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرَج. قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال القتلُ. القتلُ. القتل، ثلاثاً» عن صحيح سنن ابن ماجه.

● «إنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فَطُوبى للغرباء» عن أَنَسْ بن مالك عن صحيح سنن ابن ماجه.

مهما قيل في تفسير هذا الحديث فإن الحقيقة تبقى في أن الغريب هو الذي يكون بين أناسٍ غرباء عنه، لا يعرفهم ولا يعرفونه.. والإسلام، في آخر الزمان، يعود

أهله غرباء عنه فكأنهم لم يعرفوه ولم يكن هو دينهم من قبل، وذلك كمثل حال الإسلام والناس عند ظهور دعوة الإسلام على يد نبيّنا الكريم.

● «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعدَ الناس لُـكَعُ بن لُكَع» رواه أحمد والترمذي والضياء عن حذيفة.

واللُّكَع: العبد، أو الأحمق، أو اللئيم، قالوا: «والمعنى أن يكون اللئامُ رؤساءَ الناس، وأن أغلب الأغنياء وأصحاب المناصب والجاه لئامٌ فسَقة، وحمقى فَجَرَة، وعبيد وسوقة، أصولُهم خسيسة ومعادنهم رديئة».

● «يأتي على الناس زمانٌ الصابرُ فيه على دينه كالقابض على الجمر» رواه الترمذي عن أنس.

● «يذهبُ الصالحون الأوّلُ فالأوّل، وتبقي حُثالةٌ كحُثالةِ الشعير والتمر، لا يُباليهم الله بالَه» رواه أحمد والبخاري عن مرداسٍ الأسلمي.

● «لا تقوم الساعة حتى يُقْبَض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرَج» رواه البخاري وابن ماجه.

* وقوله (ص): (يُقْبَضُ العلم) يشير إلى زواله من بعد وجوده. والعلم، أو معرفة حقيقة الشيء، هو فيضٌ من فيوض الرحمن على بني الإنسان، وهو يؤدي كله، في النهاية، إلى معرفة الحقيقة الخالدة: الله تعالى. فإذا ابتعد الناس عن الله، بل ونسوه، فكأن العلم لم يكن، إذ هو لم يُؤَدِّ إلى الغرض المنشود منه. وابتعادُ الناس عن الله يصحبه ابتعادٌ عن كل ما هو حقٌّ وخير، فينصرفون لاهين لاعبين إلى الباطل، إلى الشهوات ودنايا الحياة. ولا تَغُرَّنك كمية المعلومات الهائلة في بطون الكتب أو في الحاسب الآلي، فأكثر الناس اليوم، فوق أنهم لا يعرفون عن ربهم ودينهم شيئاً، ولا عن حقائق الخير والصلاح، لا يعرفون من علوم دنياهم إلا الشيء اليسير، إذ إن ملاهي الحياة قد جرفتهم وأخذت من أوقاتهم الشيء الكثير، ثم إن التخصّص البالغ الذي نشهده اليوم قد صار يعني في كثيرٍ من الأحيان أن الإنسان قد

صار «بُرْغِيّاً» في ماكنةٍ عظيمة، وهو يوزّع وقته بين عمله المتخصِّص الضيّق وبين ملاهيه. ولقد قيل في أوروبا أن آخر مَن كان مُلِمّاً بعلوم عصره هو «ليوناردو دافنشي»، والذي عاش في القرن (١٥)، أما من جاء بعده فقد عزّ عليه أن يحيط بها. أُنظر إلى الناس في نزاعاتهم، وحروبهم، وعبثهم، ومجونهم، وتفاهاتهم، هل هم من العلم والحقيقة في شيء؟ كلا، إنهم أبعدُ ما يكونون عن ذلك.

وللحديث وجوهٌ أخرى. فموت العلماء هو قبضٌ للعلم، ولقد علمنا من حديث رسول الله (ص) كثرة الهَرَج، أو القتل، قبل يوم القيامة. ثم إن علماء الإسلام يُقبَضون وقد لا يَحِلّ محلهم أو يَسُدّ مكانهم مِنْ أحد. واستشراء الفساد، والفتن، والعنف، والقتل، باعتبارها ظواهر عامةً مستفحلةً في المجتمعات الحديثة، تمتد لتشمل العلماء عموماً. وإننا لنشهد اليوم ظهوراً للقوة عظيماً على وجه الأرض لم يسبق له مثيل، وبتسارعٍ عظيمٍ غير مشهود. لقد طَغَت القوة، وبأشكالها المختلفة، على الحقّ حتى لقد ظهرت عليه، وإنّك وفي أحيانٍ كثيرة، لا تكادُ ترى من الحقيقة شيئاً تحت رُكام الباطل الهائل، وترى التشويه، والتزييف، والتحريف، وإلباس الحقّ بالباطل وقد انتشر بين الناس، حتى لقد عَزَّت الحقيقةُ أو ضاعت.

* تقارب الزمان: إن ازدحام عصرنا بالأحداث العديدة المتسارعة ليكاد يأخذ بالأنفاس، ومثلما نحن ننظر إلى الإنسان في سرعة مشيه المعروفة على الأرض تقابله سرعة الطيارة والصاروخ في العصر الحديث، فإن تطور الأحداث السريع، في القرن العشرين بالذات، وفي العقود الأخيرة منه على وجه الخصوص، قد فاقَ كل تصوّر. إن «تسارع» الأحداث هذا، أو «تقارب» الزمان، لهو ظاهرةٌ بارزة وملفتة للنظر في زمننا هذا.

* كثرة الزلازل: إذا كان لكل شيءٍ مقدماتٍ وعلامات، فإننا نرى في تكاثر الزلازل، تصيب الأرض، علامةً من علامات اضطراب الكرة الأرضية المتزايد وقرب قيام قيامتها.

● «لا تقوم الساعة حتى يُرْفَعَ العلم، ويفيض المال، ويَظهرَ القلم، وتكثر التجارة» ذكره ابن المبارك بن فضالة عن الحسن.

* المال يفيض: لقد أدت مكننة وسائل الإنتاج واستخلاص خيرات الأرض إلى زيادة ثروات الناس في العصر الحديث، وكما لم يحدث من قبل.

* ظهور القَلَم: قالوا هو ظهور الكِتاب، وكثرة الكُتّاب. وأقول: وهو أيضاً زمن المطابع التي ظهرت في العصر الحديث، والتي ما فتئت تقذف بما لا يُعَدّ من المطبوعات ليل نهار.

* كثرة التجارة: وهي نتجتْ عن وفرة الإنتاج الصناعي والزراعي والحيواني، وتوفر وسائل النقل السريع.

● عن أبي سعيد الخدري (رض) عن رسول الله (ص): «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تُـكَلِّمَ السِّباعُ الإنسَ، وحتى تُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبةُ سَوْطِهِ، وشِراكُ نعله، وتخبره فخذه بما أَحْدَثَ أهلُه بعدَه».

عن الحافظ في مستدركه
وأبي داود في سننه
والترمذي في جامعه

عَذَبَـةُ السوط: طَرَفُه.
الشِّراك: سَيْرُ النَّعْل على ظهر القدم.

* * *

أوَيمكنُ للسِّباع أنْ تكلِّمَ الإنسان؟

هل يمكن أن يوجد في سوط الإنسان، أو في شِراك نعله، ما يكلّمُ به الإنسان؟
وهل يمكن أن يوجد في رِجْل الإنسان ما يخبره عما يفعل أهل بيته؟

* * *

إن هذا الحديث النبوي، الذي جاء قبل أربعة عشر قرناً، لينطق بالعَجَب العُجاب من أحوال الناس في آخر الزمان. فأمّا المؤمنون فإنهم يؤمنون بكل ما قد جاء في كتاب الله تعالى وبكلّ ما صح وروده عن رسول الله (ص)، وأما الذين كفروا بالله وبرسوله فأنّى لهم أن يصدّقوا بذلك، وأن يصدّقوا بالحديث الذي قد أوردناه، لَهُوَ بعيدُ الاحتمال جداً.

* * *

هل يمكن للسباع أن تُكَلِّمَ الإنسان؟

لقد تطوّرت الأحوال، في زماننا الحاضر، تطوراً هائلاً لم يكن ليدور في مخيّلة الإنسان حتى وقت قريب، ولقد دارت عجلة الزمان بتسارعٍ مذهل حتى صار الحال غير الحال، وما لم يكن ممكناً أو معقولاً أمس صار اليومَ ممكناً ومعقولاً، وصرنا نشهد في كل حين، بل وفي كل يوم، ما ندهش له ونعجب منه، ثم إذا بدهشتنا وعجبنا يزولان بعد أن نتعود على ذلك الأمر، لنتعجّبَ من شيءٍ آخر جديد، وهكذا.

* * *

ولقد قلنا، في كتاب «أسرار خلق الإنسان»، إن مادّة الـ«دَنا» (DNA)، أو «الشفرة الوراثية» الموجودة في الجينات، والمحمولة على الكروموسومات في نواة الخلية، هي أشبه بِـ«غرفة قيادة» أو حاسب مبرمَج عظيم، وهي تسيطر على فعاليات الخلية كافة وترسل تعليماتها الدقيقة و«المُقْولَبَة» التي لا تعرف التغيير ولا الخطأ، من خلال «الرَنا المِرْسال»[1]، والذي هو بمثابة ساعي البريد الذي يحمل هذه التعليمات إلى «الرايبوسومات»[2] التي هي معامل متخصصة في السايتوبلازم لصنع ما شاءت لها الجينات أن تصنع.

---

(١) Massenger RNA.

(٢) Ribosomes.

ولقد صار العلاج، في الوقت الحاضر، ومن خلال التلاعب بالجينات، أو ما يُسمّىٰ بـ«الهندسة الوراثية»، أو «هندسة الجينات»[1]، أمراً معروفاً واسع الانتشار. يقوم العلماء، وبتقنياتٍ خاصة، بِحقن الجينة الناقصة، أو أيَّةِ جينةٍ أخرى يريدونها، إلى نواة الخلية، فتصير جزءاً من «شفرتها الوراثية»، وتقوم بإصدار «تعليماتها» إلى «الرايبوسومات» لصنع المادة التي تتخصص بها تلك الجينة، فَحَسْبَما يَكُنْ لديك مِنْ جيناتٍ تصنعْ لك معاملُ الخلية.

ويحذّر العلماء من العواقب الخطيرة التي لا حصر لها والتي يمكن أن تنجم عن سوء التلاعب بالجينات، والتي قد أودع فيها الحقُّ تعالى، وكما قد رأينا، أساس الحياة وأسرارها، وهو أمرٌ يمكن أن يحدث إنْ عاجلاً أو آجلاً. فأما وقد فَكَّ العلماءُ طلاسم الخلية، وأماطوا اللثام عن الكثير من مُعْمياتها، وامتلكوا مفاتيح معاملها، فلقد صاروا يوجّهونها الوجهة التي يريدون، فيحصلون على مواد لا تنتجها الخلية الأصلية. وكمثالٍ على ما أقول فلقد أمكن صنع هورمون «الأنسولين» البشري، وهو يختلف بعض الاختلاف في تركيبه عن الأنسولينات الحيوانية الأخرى، أمكن صنعه وبنسخةٍ طبق الأصل، من خلال إدخال الجينة المسؤولة عن صنعه إلى نواة خلية بكتريا، فتقوم الأخيرة بصنع الأنسولين البشري. ولقد أمكن للعلماء أن يحصلوا بهذه الطريقة على كمياتٍ هائلةٍ منه.

ومن يدري، فقد لا يكون بعيداً ذلك اليوم الذي يزرع فيه الإنسان جينةً أو جيناتٍ مسؤولة عن نُطْق الإنسان في خلايا حيوان ما، فتقوم هذه بإصدار تعليماتها إلى الخلايا الموجودة في مركز النطق من دماغه فتحفّزها حتى تنطق من بعدها وتُكلِّم الإنسان. واستناداً إلى حقائق ومنجزات العالم الحديث فإن هذه الفكرة لا تبدو مستحيلةً علمياً، رغم أنها فكرةٌ افتراضيّة بحتة، بل هي تملك أساساً من العلم والتجريب.

---

(١) Genetic engineering.

وما الذي يمنعُ الإنسان من عمل ذلك، غير الضوابط الدينية، أو الأخلاقية، إن كانت لديه القدرة التقنية المطلوبة؟ وهل يوجد حَدٌّ لِما يمكن أن يُقْدِمَ عليه الإنسان في إطاعة هواه ومخالفة نواميس الطبيعة؟ إننا، في واقع الحال، نشهد أنه كلما وضع الباحثون حدوداً، أو ضوابط أخلاقية، تنظّم أعمالهم باعتبارها غيرُ مسموحٍ تعدّيها، كلما عادوا في الغد يتجاوزونها فصارت «حلالاً» بعد أن كانت في حكم «المحرمة»، وفي سلسلةٍ لم نشهد لها توقفاً قطّ.

* * *

وكيف يمكن لعَذَبة السوط، أو شِراك النعل أن تكلّم الإنسان؟

لم يعد غريباً، في عصر رُقاقات الحاسب المصنوعة من السليكون[1]، وعصر «الكهربائيات الدقيقة»[2]، وبرامج الحاسبات[3]، أن يتبادل الإنسانُ الكلام مع «الإنسان الآلي» أو «الحاسب الآلي». ولقد بلغت هذه الرقاقات الآن من الصغر ما يمكننا من أن ندسّها في رأس قلم أو نقطة في ساعة مثلاً[4]، فليس من المستغرب أو العجيب أن يوضع مثل ذلك في طرف سوط أو غيره فيكلِّمَ صاحبه. ومِثْلُه أنْ تُخْبِر الرِّجْلُ الإنسانَ عن أهله من بعد تركه لهم ماذا هم صانعون. إنه أشبه بهاتف، أو جهاز استقبالٍ لاسلكيٍ صغيرٍ جداً، يُزْرَع في جسم الإنسان.

وبالاختصار، فإنّ ما قد ورد في الحديث نرى أمثلةً له في زماننا هذا، في العقد الأخير من القرن الأخير للألف الثانية للميلاد.

---

(١) Silicon chips. إن الرمل هو، في معظمه، سليكون، إلا أن السليكون المستعمل في صنع رقائق الحاسب لا بد أن يكون نقياً جداً. إن رقاقة من (٥) مليمترات مربعة يمكن الآن أن تكون الجزء الأساسي في الحاسب، أو «الكومبيوتر».

(٢) Microelectronics.

(٣) Computer programs.

(٤) يمكن الآن وضع أكثر من مليون من الترانسسترات (Transistors) المجهرية على رُقاقة (Chip) مربعة واحدة مساحتها (٥) مليمترات، ويمكن لكلٍ من أجزاء المليون هذه أن تقوم بالعمل الذي كان يؤديه صَمّام زجاجي كبير قبل سنين قلائل.
Computers and Electronics, Rainbow, Whismith, 1983.

ولِـمَ هـو تخصيـصُ طـرف السـوط، أو سَيْـر نعـل الإنسـان[1]، أو رِجلـه، بالحديث؟ ولماذا لم يجيء الحديث على ما لا يُعَدّ مما يحيط بالإنسان ويمكن أن يتكلّم معه، وبالطريقة نفسها؟ إنها مجرّد أمثلة، وهي كلها تُلازم الإنسان أشدّ ملازمةٍ كملازمة الهاتف أو «البليب» له اليوم، وقد يكون الغرض من ذكر السوط الإشارة إلى ما تعارف الناس عليه في ذلك الزمان من أشياء معتادة، وقد لا يكون ذكر السوط أو النعل، وهي من أهون ما يملكه الإنسان، إلاّ إشارةً إلى انتشار خاصيّة الكلام في أكثر ما يُحيط بالإنسان من أشياء، وهو أمرٌ ينطبق على واقع حالنا الآن. ولَعَمري فأَنْ يُحدِّثَ الرَّجُلَ فَخِذُهُ يُذكّرُنا بالهواتف النّقّالة أو «البليبات» التي يحملها الناس، في هذا الزمان، متدلية من خلال أحزمة بطونهم فوق أرجلهم.

وبالرجوع إلى ما ورد في الحديث من أشياء، ومن خلال ربطها ببعضها البعض، يتضح أن ما ورد فيه ينتظمه خيطٌ واحد هو شيوع أن يكلّمَك هذا أو ذاك من الكثير مما يحيط بك من «الجمادات»، وإلاّ فهل كان في زمن النبي (ص) تلك المصادر التي لا تعدّ، مما نعرفه اليوم، من مصادر الكلام، ونقل الكلام؟

ونكتشف أن الحديث يشير إلى جانبين اثنين عظيمين من مكتشفات العصر الحاضر:

١ ـ عصر اكتشاف الجينات، مروراً بفكّ طلاسم الشفرة الوراثية، وانتهاءً بـ«زرع الجينات» أو «الهندسة الوراثية» التي صارت حقيقة واقعة في هذ العقد من الزمن.

٢ ـ وهو أيضاً عصر صنع رقائق الحاسب، أو «الكومبيوتر»، والتي دَقَّت فلا تكاد تُرى، ومِمَّ؟ من حبّات السليكون، أو الرمل.

ومن عجبٍ أنّ موضوع الحديث قد جاء حول أمرين اثنين نشهد تحقّقَ

(١) جاء في الأنباء، والكاتب يراجع هذه السطور، أنهم يصنعون الآن نعالاً، أو أحذية، تتكلم عبر جهاز صغير يوضع في مقدمتها، في ظهر النعال.

أساسهما العلمي، من بعد (١٤) قرناً، في تطابقٍ زمنيٍ مذهل: إنه زمنُ «الهندسة الجينية»، و«الحاسب» في آن!

● ظهور المهديّ.

جاء أن علامات الساعة على ضربين، فمنها علاماتٌ صغرى، وهي التي تتقدم الساعة بأزمانٍ بعيدةٍ متطاولة، وهي مُعتادةُ الوقوع في ذاتها، وعلاماتٌ كبرى، وهي التي تُقارب الساعة مقاربةً وشيكة، وتكون غير معتادة الوقوع في ذاتها.

ولقد ورد من علامات الساعة الكبرى، في القرآن الكريم، يأجوج ومأجوج، والدّابّة، وقد تطرقنا إليهما، ووردت في العلامات الكبرى أحاديثُ كثيرة. ومن الأمور التي تتعلّق بعلامات الساعة الكبرى ظهور المهدي، وهو من آلِ رسول الله (ص) ومن ولد فاطمة، يأتي في آخر الزمان، وقد مُلِئَت الأرضُ ظُلماً وجوراً، فيملأُها قِسْطاً وعدلاً، وقد جاءت به أحاديث متواترة كثيرة.

١ ـ «قال رسول الله (ص): «إنّا أهلُ بيتٍ اختار اللهُ لنا الآخرةَ على الدنيا، وإنّ أهلَ بيتي سيَلْقَوْنَ بعدي بلاءً شديداً، وتطريداً، حتى يأتي قومٌ مِنْ قِبَلِ المشرق معهم راياتٌ سود، فيسألون الخير فلا يُعطَوْنه، فيقاتلون فينتصرون، فيُعْطَوْن ما سألوا، فلا يقبلونه، حتى يدفعونها إلى رجلٍ من أهل بيتي، فيملأها قِسْطاً كما مُلِئَت جوراً».

سنن ابن ماجه
الحديث ٤٠٨٢
ج ٢ طبعة سنة ١٩٥٣

٢ ـ «المهدي مِنّا أهل البيت».

المصدر نفسه
الحديث ٤٠٨٥

٣ ـ «المهدي من ولد فاطمة».

المصدر نفسه
الحديث ٤٠٨٦.

٤ ـ قال رسول الله: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العربَ رجلٌ من أهل بيتي يواطىءُ اسمُه اسمي».

صحيح الترمذي
ج ٩ص٧٤ طبعة سنة ١٩٣٤

٥ ـ قال رسول الله (ص): «لو لم يبق من الدنيا إلا يومٌ لَطَوَّلَ الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يواطىءُ اسمه اسمي. .».

أبو داود السجستاني في سننه
ج٢ ص ٤٢٢ طبعة سنة ١٩٥٢

٦ ـ وعن أبي سعيد الخدري (رض) قال: قال رسول الله (ص): «لا تقوم الساعة حتى تُملأ الأرضُ ظلماً وعدواناً قال: ثم يخرج من عترتي أو أهل بيتي من يَمْلأُها قسطاً وعدلاً كما مُلِئَت ظلماً وعدواناً».

الإمام أحمد بن حنبل في مسنده
في سند أبي سعيد الخدري ٣: ٣٦ بسند صحيح، رجاله ثقات.

٧ ـ «إن الأحاديث التي يُحْتَجُ بها على خروج المهدي أحاديثُ صحيحة، رواها أبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم».

شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «منهاج السنّة النبوية» ٤: ٢١١

٨ ـ «فإذا أراد الله أن يطهّر الأرض من الظَلَمة والخونة والفَجَرة يُخرِجُ عبداً من عباده من أهل بيت نبيّه (ص)، فيملأ الأرض قسطاً كما مُلِئَت جوراً».

ابن القيم في «الجواب الكافي»
ص ٥٩

● شروق الشمس من الغرب، وهو جاء في الحديث عن رسول الله (ص) أنه من العلامات الكبرى التي تُقارِبُ يوم القيامة مُقاربةً وشيكة.

وأقول إنّ ذلك لا يجيء من تغيّرٍ في حركات الشمس، أو تغيّرٍ في دوران الأرض حول الشمس من يسارٍ إلى يمين، أي ضدّ عقارب الساعة، بل هو يمكن أن يحدث إذا انعكس اتجاه دوران الأرض حول نفسها، فبدلاً مِن أن تدور من يسارٍ إلى يمين فإنها تأخذُ بالدوران بالاتجاه المعاكس، واللهُ تعالى أعلمُ بذلك.

وكأنّ ذلك آيةٌ على بدءِ انعكاس الأمور، وانتهاء الأجل المسمّى للأرض ومَن عليها، وهيهات، يومئذٍ، أن تعود عقاربُ الساعةِ إلى وراء.

ثالثاً - أحوالُ الناس في آخِرِ الزمان

للإمام عليّ

● وذلك زمانٌ لا ينجو فيه إلا كلُّ مؤمنٍ نُوَمَة[١]، إنْ شَهِدَ لَم يُعْرَف، وإن غاب لم يُفْتَقَد، أولئك مصابيحُ الهدى، وأعلامُ السُّرى[٢]، ليسوا بالمساييح[٣]، ولا المذاييع[٤] البُذُر[٥]، أولئك يفتحُ اللهُ لهم أبوابَ رحمته، ويكشفُ عنهم ضَرّاء نِـقَمه.

● أيها الناس، سيأتي عليكم زمانٌ يُكْفَأُ فيه الإسلام كما يُكفأ الإناءُ بما فيه. أقول: مثلما لا يبقى في الإناء بعد كفئه مِنْ شيء، فكذلك لا يبقى منه إلاّ اسمه.

● فعند ذاك أخذ الباطلُ مآخِذَهُ، وركب الجهلُ مَراكِبَهُ، وعَظُمت الطاغية، وقلّت الداعية، وصال الدهرُ صِيالَ السَّبُع العقور، وهَدَر فَنِيقُ[٦] الباطل بعد كُظُوم[٧]، وتواخى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدِّين، وتحابّوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق. فإذا كان ذلك كان الوَلَدُ غيظاً[٨]، والمطرُ

---

(١) نُـوَمَة: كثير النوم.
(٢) السرى: السير في الليل.
(٣) المساييح: الذين يسيحون بين الناس بالفساد والنمائم.
(٤) المذاييع: الذين إذا سمعوا لغيرهم بفاحشة أذاعوها ونوهوا بها.
(٥) البُذُر: الذين يكثر سَفَهُهم ويلغو منطقهم.
(٦) فَنيق: فحل الإبل.
(٧) كُظوم: إمساك وسكون.
(٨) غيظاً: يغيظ والده لشبوبه على العقوق.

قيضاً[١]، وتَـفيضُ اللئام فيضاً، وتَغيضُ الكرامُ غَيْضاً[٢]، وكان أهلُ ذلك الزمان ذئاباً، وسلاطينُه سِباعاً، وأوساطُه أُكّالاً، وفقراؤُه أمواتاً، وغار الصدقُ، وفاض الكذبُ، واستُعمِلَت المودةُ باللسان، وتشاجر الناسُ بالقلوب، وصار الفُسوقُ نسباً، والعَفافُ عجباً، ولُبِس الإسلامُ لُبْس الفَرْوِ مقلوباً.

أقول: أي صار الناس ليس لهم من الإسلام إلا الاسم، بينما أن واقع الحال هو عكس ذلك، إذ صار القبيحُ حَسَناً، والحَسَنُ قبيحاً، وصار الحلال حراماً، والحرام حلالاً.

---

(١) القيض: شدة الحر، والمراد بكون المطر قيضاً عدم فائدته. أقول. وقد يكون تسخين وجه الأرض، وزيادة تبخر المياه من محيطاتها سبباً للمطر صيفاً.

(٢) غيضاً: غاض الماء أي غار في الأرض وجفّت ينابيعه.



القيامة والكون

ما هي «السماوات السبع»؟ وما المقصود بـ «السماوات» في قوله سبحانه «السموات والأرض»؟

لا بد من الإشارة قبل البدء بفصول هذا الباب إلى أن لكلمة السماء، والسماوات، معاني عديدة في كتاب الله تعالى، وقد تطرقنا إليها بالبحث مفصلاً في كتابنا «أسرار الكون في القرآن».

ولقد قُلنا، والله أعلم، إنّ كلمة «السماوات» مقرونةً بكلمة «الأرض» تُذكَرُ بعدها من غيرِ فاصل، هي السماوات السبع نفسها، وأنها الكواكبُ السيارة في منظومتنا الشمسية غير الأرض.

القيامة تصيب السماوات والأرض

تدل الآيات التالية على أن القيامة تصيب «السماوات»، إضافة إلى الأرض، في وقت واحد:

﴿. . وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ . . ﴾ [الزُّمَر: ٦٧].

القبضة: مجاز عن المِلْك أو التصرف.

اليمين: مجاز عن القدرة التامة.

● ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ

﴿ ... ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً . . ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

مُرْساها: وقوعها وحدوثها.

يُجلّيها: يُظهرها.

لِوقتها: في وقتها.

وقولُه تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدل على ثقل أو شدة وقعها على السماوات والأرض. والآية تدل بوضوح على أن ذلك كله يحدث في آنٍ واحد.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

فزع: خاف خوفاً يستتبع الموت.

داخرين: أذلاّء صاغرين.

إنّ نفخ الصور يستتبعه قيامُ قيامة السماوات والأرض في الوقت نفسه.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

صَعِقَ: خرّ ميتاً.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ . . ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

إنها تُبدّل، كلها، في اليوم نفسه.

● ﴿ . . مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [الروم: ٨]، ومثلُه في الآية ٣ من سورة الأحقاف.

ينتج عن ذلك أنّ القيامة تصيب منظومتنا الشمسية، بشمسها وأرضها وبقية كواكبها السيارة وأقمارها، في وقتٍ واحد، وأنها وكما سوف نرى محصورةٌ بها، والله تعالى أعلم.

وقولُنا هذا لا ينافي قولَنا أنْ لا شيء في الكون مما قد خلقه سبحانه إلا وهو يهلك، إذ إن كل مخلوق مصيرهُ الموت، وهو ما نراه في قوله تبارك وتعالى: ﴿. . كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ . . ﴾ [القصص: ٨٨].

الأجل المسمّى (يوم القيامة) يصيب المنظومة الشمسية وحدها

جاء ذِكرُ «الأجل المسمّى»، وهو الموعدُ المقدّرُ الذي قدّره الحقُّ سبحانه ليوم القيامة، والذي لا يعلمه إلاّ هو، جاء مقروناً بذكر الشمس والقمر في أربع آيات، كما جاء مقروناً بالسماوات والأرض في آيتين اثنتين.

بينما أن كتاب الله تعالى يخلو من إقران «الأجل المسمى» بالنجوم، وهو ما يدل على أن ذلك الأجل المسمى لا يصيب النجوم الأخرى غير الشمس.

١ ـ فلقد جاء ذكر «الأجل المسمى» بعد **الشمس والقمر** في أربع آيات هي:

﴿. . وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [الرعد: ٢].

﴿. . وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [لقمان: ٢٩].

﴿. . وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [فاطر: ١٣].

﴿. . وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [الزمر: ٥].

٢ ـ وجاء ذِكر «الأجل المسمى» بعد **السماوات والأرض وما بينهما في** آيتين:

﴿. . مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [الروم: ٨].

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [الأحقاف: ٣].

ولقد أحصيتُ، غيرَ هذه الآيات، أكثر من (١٠) آياتٍ أخرى تذكر «الأجل المسمى» بمعنى يوم القيامة من غير ذكرٍ لأيٍّ من الأجرام السماوية.

● نحن نعلم، وبنصوص القرآن الكريم، أن يوم القيامة يصيب الشمس والقمر مثلما هو يُصيب السماوات والأرض.

● وإذا عطفنا ما جاء في المجموعة الأولى من الآيات الكريمة على ما جاء في المجموعة الثانية منها اتضح أن يوم القيامة «الأجل المسمى» يصيب (الشمس + القمر + السموات + الأرض + ما بينهما)، أي ما أقمنا الدليل على أنه المنظومة الشمسية. وهناك غيرُ هذه الآيات الست آيات أخرى كثيرة تذكر يوم القيامة بالاسم نفسه، أي «الأجل المسمى»، وكلها يخلو من ذِكر أنّ الأجل المسمى هذا يصيب النجوم.

إنّ هذا الخلوّ من إقران «الأجل المسمى» بالنجوم يدل على أنّ الأجل المسمى يصيب المنظومة الشمسية وحدها.

كما أنّ الآيات التالية هي أيضاً تذكر يوم القيامة على أنه يصيب السماوات والأرض، من غير ذكرٍ للنجوم:

١ ـ ﴿. . وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ. .﴾ [الزمر: ٦٧].

٢ ـ ﴿. . ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً . .﴾ [الأعراف: ١٨٧].

٣ ـ ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ . .﴾ [النمل: ٨٧].

٤ ـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ . .﴾ [الزمر: ٦٨].

٥ ـ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ليس هناك في هذه الآيات من ذكرٍ لـ «الطَيِّ» يصيبُ النجوم، ولا «الثقل»، أي شدة الوقع، ولا «الفزع»، ولا «الصعق» ولا «التبديل».

القيامةُ لا تشملُ الكون كلَّه، ولا مَجرَّتنا كلَّها. لماذا؟

١ ـ إنّ «تكوير الشمس»، يوم القيامة، هو إعلانٌ عن وصول الشمس نهاية رحلة حياتها واحتضارها، وهي عمليةٌ يرى العلماء، كل يومٍ، نظائرَ لها في الفضاء من نهاياتٍ للنجوم المفردة في مَجرّتنا من غيرِما احتضارٍ لبقية النجوم. إنّنا نرى في المجرّة، أية مجرّة، وفي الوقت الواحد، نجوماً تولد وأخرى تشبّ وغيرها يشيب أو يموت، أطواراً مختلفة من أعمارها.

ولو كانت القيامة التي نتحدث عليها تشمل الكون كله، أو مجرتنا كلها، فإن الشمس في هذه الحالة يجب أن تُحْتَضَر مع كل النجوم الأخرى من غيرما «تعملقٍ» أو «تكوير» لها، ولكن، وأما وقد ارتبطت القيامة، قيامتنا نحن، باحتضار الشمس، أي «تكويرها» وصيرورتها «عملاقاً أحمر»، فإنّ ذلك يعني أن القيامة تشمل الشمس والمنظومة الشمسيّة وحدها.

٢ ـ يبيّن الكثير من الآيات أنّ «السماوات والأرض» قد خُلقت في وقتٍ واحد ثم إن لها أجلاً، أو نهايةً، واحدة. والمقصود بذلك، وكما قد بيّنّا سابقاً، المنظومة الشمسية. إن هذا «الأجل المسمى» للمنظومة الشمسية لا يرافقه ذِكرٌ لأجلٍ مسمى مشابهٍ لبقية النجوم في الوقت نفسه.

٣ ـ لم يَرِدْ في وصف النجوم ما يدلُّ على قيامتها يوم القيامة، بل إنّ ذلك ينحصر بانكدار ضوئها، أو انطماسه، لِما يحول بيننا وبينه يومئذ. فَانظرْ كيف أن الشمس «تتعملق» بينما أن النجوم «تنكدر» و «تنطمس»، ولا ذكرَ لنهايةٍ، أو «أجلٍ» للنجوم الأخرى يومئذ، ولا «تكويرَ» لها أو «تناثر».

٤ ـ قلنا في الصفحة (١٥٠ و ١٥٦) من هذا الكتاب إن الجنة والنار كانتا موجودتين ولا تزالان كذلك يوم القيامة، وهي حقيقةٌ تنفي قيام قيامة الكون، كله، يومئذ.

جدول مقارنة بين «الفتق» و «الرتق»

أو بين خَلْق السماوات (السبع) والأرض، أي الكواكب السيارة، وقيامتها

الخلق، «الفتق»	القيامة، «الرتق» أو «الطي»
﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. قلنا في كتاب «أسرار الكون في القرآن» إنّ السماوات (السبع) والأرض كانت، وبنصّ هذه الآية، متصلةً ببعضها، ثم فَصَل الحقُّ سبحانه بينها، وإن المقصود بها هو الكواكبُ السيارة في منظومتنا الشمسية. وقلنا إن «النظرية السديمية» في نشوء المنظومة الشمسية، وهي اليوم أقوى النظريات، وأكثرها قبولاً بين العلماء، تقول بالشيء نفسه، وهو أن أصل الكواكب السيارة والشمس كان قرصاً عظيماً من الغاز والبخار الذي انكمش وانفصل إلى هذه الأجرام. وقلنا إن هذه الآية تشير إلى رتقٍ يعقبه فتق، وإن كلمة الرتق نفسها تُشير إلى جمع أشياء متفرقة، وإن الفتق هو الفصل والتجزيء، أي الأمر هو هكذا: فتق ← رتق ← فتق.	﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ .. ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. ما هو معنى «السماء» هنا، من بين معاني كلمة «السماء» العديدة؟ هل هو غلاف الأرض الجوي؟ أم هو المنظومة الشمسية؟ أم هو مجرّة «درب التّبّانة»؟ وما المقصود بِـ «طيِّ السماء»؟ إن القرآن يفسّرُ بعضُه بعضاً. وإذا خَفِيَ علينا معنى طي السماء هنا فإننا نجد التعبير نفسه مرةً أخرى في كتاب الله، وبما يوضّح معناه، وذلك في قوله تعالى، وفي يوم القيامة أيضاً: ﴿ .. وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ .. ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقولك: طويتُ الشيء يعني أنك قد ضممته إلى بعضه البعض وجمعت أجزاءه معاً. والسماوات هنا هي الكواكب السيارة في منظومتنا الشمسية. والآية تدل على ضمِّ السموات والأرض إلى بعضها البعض مثلما كان الحال أول خلقها، إذ إن تناثر الكواكب السيارة يعني أنها تصير قطعاً متناثرة عديدة وهي تجتمع إلى بعضها بفعل الجاذبية. فيكون معنى «السماء» في قوله سبحانه (يوم نطوي السماء) هو المنظومة الشمسية، وطيُّها هو جمعُ الكواكب السيارة المتناثرة؛ فهو إذاً: رتقٌ من بعد فتق.

النجوم يوم القيامة

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ [المرسلات: ٨].

﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ [التكوير: ٢].

اختلفت آراء العلماء فيما يحدث للنجوم يوم القيامة، فمنهم من ذهب إلى أنها تسقط وتتناثر، ومنهم من قال بأن ضوءَها يذهبُ وحَسْب، والفرقُ بين التفسيرين عظيم. فالأولّ منهما يعني أنّ القيامة تصيب النجوم الأخرى إضافةً إلى الشمس، بينما يعني الثاني ذهاب ضوء النجوم الأخرى ولكن من غير قيام قيامتها بالضرورة.

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾

آراء علماء اللغة:

المعجم الوجيز: طَمَس الشيءَ وطمس عليه: شوّهه أو محاه وأزاله. يُقال: طَمَسَتِ الرِّيحُ الأثرَ.

المنجد: طمس: درس وانمحى، وطمس النجمُ أو البصرُ: ذهب ضوؤُهما، وطمس الشيءَ طمساً: محاه، أهلكه، غطّاه، استأصل أثره.

وطمسَ الغيمُ النجومُ: أذهبَ ضوءها.

والطَّميس والمطموس: الذاهب البصر.

آراء علماء التفسير:

القرطبي: طُمِست أي ذهبَ ضوؤُها ومُحِي نورُها كطمس الكتاب، والريحُ تطمس الآثار فتكون الريحُ طامسةً والأثرُ طامسٌ بمعنى مطموس.

الشيخ مغنية: طُمِست: ذهب ضوؤها.

الشيخ مخلوف: مُحقت.

أو ذهب ضوؤُها فلم يكن لها نور.

الشيرازي في «تقريب القرآن إلى الأذهان»: طُمست أي ذهب نورها حتى صارت بلا ضياء أو نور.

* * *

لكن ذهاب ضوء الشيء ليس هو ذهاب الشيء نفسه، لأن الثاني يعني محقه واستئصاله. وفرقٌ بين ذهاب ضوء النجوم وبين دمارها، وبين انطفاء الشيء وحجبه عنك.

مناقشة:

إنّ المعنى الغالب للطمس هو ذهاب ضوء الشيء، وهو كما قد رأينا معنىً معروفٌ يُقرَن، بالأخصّ، بالنجم أو البصر، للدلالة على ذهاب ضوئهما. لا بل إن استعمال كلمة (الطمس) لغير هذين يقترن غالباً بذهاب أثر الشيء لا ذهاب الشيء نفسه. فطمسُ الريحِ لآثارِ الأقدام لا يعني فَناءً ولا محقاً لمادة التراب، وكذلك هو طمسُ الكتاب الذي لا يدلّ على ذهاب مادة الكتاب نفسه.

وقولُهم: طمسَ: غطّى، وطمس الغيمُ النجومَ: أذهبَ ضوءَها، أبلغ ما يكون وضوحاً، فهو إضافةً إلى اختصاصه بذهاب ضوء النجوم فإنه يشير إلى سببٍ خارجيٍّ يقع بيننا وبينها فيحول دون رؤيتنا لها، وهو الغيم الذي هو من أكثر أسباب انطماس ضوء النجوم في الليل.

وهكذا نرى أنّ معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ واضحٌ في أنّه، وهو يختصُّ بضوء النجوم يوم القيامة، ينحصر في ذهاب ضوئها، وليس أكثر من ذلك.

ولكنَّ قسماً من علماء التفسير قد جمعوا بين طمس النجوم المذكور في الآية وبين انكدارها الذي يُشير إليه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾، فصاروا عندما يفسّرون الآية الأولى يشرحونها بالآية الثانية التي غلب عليها القول بأنها تدل على تناثر النجوم، وهو ما سوف نعلله لاحقاً.

﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾

آراء علماء اللغة:

الوجيز: كَدِرَ الماءُ كَدَراً: صار غير صافٍ.

كَدُر اللون: مال إلى السواد.

الكُدارة: العُكارة في أسفل القِدر ونحوه.

الكُدْرة: اللون يميل إلى السواد.

انكدرت النجوم: تناثرت.

المنجد: كَدَر: نقيض صفا.

الكُدْرة من الألوان: ما لم يكن صافياً ومالَ إلى السواد والغبرة.

الكَدَرة: السحاب الرقيق.

الكَدَرة من الحوض: طينه أو ما علاه من طحلب ونحوه.

انكدرت النجوم: تناثرت.

آراء علماء التفسير:

الضحاك عن ابن عباس: تساقطت. وعن **ابن عباس أيضاً:** تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها من أماكنها.

ابن كثير: انتثرت.

مغنية: انكدار الشيء في اللغة انقلابه. والمراد تساقط النجوم وتناثرها.

مخلوف: انقضّت وتناثرت.

أو تغيرت وانطمس نورها من كدرتُ الماء فجعلته كدراً أي مائلاً نحو السواد والغبرة.

الشيرازي: يذهب نورها وضياؤها، من الكدرة.

مناقشة:

نحن نعلم بأن الصفاء في رؤية الشيء يستلزم أن يكون الوسط ما بيننا وبينه رائقاً شفافاً، ولا يكون الانكدار إلا بتعكير هذا الصفو بوجود عائقٍ ما، في هذا الوسط، يحجب رؤية ما يليه. ونحن نرى من أقوال العلماء أن الانكدار، لغةً، هو ضدّ الصفاء، وأنه الميل إلى الاعتكار والسواد والغبرة. إلا أن علماء اللغة والتفسير عندما جاؤوا إلى النجوم أضافوا إلى ذلك المعنى الذي قد ذكرناه تفسيراً آخر محتملاً، هو تساقط النجوم وانتثارها. فلِمَ كان هذا المعنى الآخر ومن أين جاء؟

يبدو أن العلماء قد ظنّوا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ أن المقصود بالكواكب هنا هو النجوم لا الكواكب السيارة كما نعرفها اليوم، لكن الناس قديماً كانوا يطلقون كلمة (الكواكب) على النجوم وعلى الكواكب السيارة، في آنٍ، لتشابهها في رأي العين، حيث إن الكواكب السيارة تبدو للناظر إليها كالنجوم. ولقد أسمىٰ العرب الأولى بالكواكب المتحيرة، والثانية بالكواكب الثابتة[1]. وقد يكون فهمهم ذاك لهذه الآية الكريمة التي تنصّ على تناثر الكواكب هو السبب في اعتقادهم بتناثر النجوم، حيث إن لفظي (الكواكب) و (النجوم) كانا يعنيان لهم شيئاً واحداً لا شيئين مختلفين. إلا أننا قد فسّرنا، في مكانٍ آخر من هذا الكتاب، الكواكب المذكورة في هذه الآية بالكواكب السيارة وليس النجوم.

والنجوم، كما نعلم، هي شموسٌ بالغة الحرارة. وفي الشمس، وهي تعتبر ذات حرارة معتدلة بين النجوم، تصل درجة الحرارة في مركزها إلى (١٥) مليون درجة مئوية، وإلى (٦) آلاف درجة في أطرافها، بينما أن هناك نجوماً أشد استعاراً وحرارةً من الشمس بكثير. ورغم أن النجوم تتحرك، بالنسبة إلى بعضها البعض، بسرعات عظيمة، إلا أننا لا يمكننا رؤية أي تغيّر في موضع أي نجم بالنسبة إلى ما حوله من النجوم إلا بعد مرور آلاف السنين، ويعود ذلك إلى المسافات الشاسعة التي تفصلها عنا، والتي تقاس بالعديد من السنين الضوئية.

---

(١) انظر كتابنا «هذا الكون العجيب، من الذرّة إلى المجرّة».

وإننا لَنعلم، من خلال مراقبتنا للفضاء، بأن النجوم، مثل أي مخلوقٍ آخر، تولد، وتَهْرَم، ثم تُحْتَضَر وتموت، في كل يوم بل وفي كل ساعة. النجوم، عند احتضارها، لا تتناثر بل «تتعملق»، أي يزداد سطوعها وحجمها ازدياداً عظيماً، وكذلك هي الشمس التي تسمىٰ عندئذٍ بِـ «العملاق الأحمر» والتي يتوقع لها عندئذٍ، وبدلاً من «انتشارها»، أن تتوسع وتمتد وينتشر لهبها العظيم حتى إنها لَتلتهم الكواكب السيارة القريبة منها، وأن تقترب من الأرض كثيراً[1]، وهكذا هو بدء احتضار كل النجوم

ثم إنّ تناثرَ النجوم في الفضاء، لو افتُرِض حدوثُه، لا يستتبعه ذهابٌ لضوئها كليةً، إذ إنها تبقىٰ بعد احتضارها، ولملايين السنين، كتلاً عظيمة من النار المستعرة.

وإذا كانت مجرّة «درب التبّانة» تُصاب كلها يوم القيامة، وهو ما نستبعده، فلا بد من أن نجومها الأخرى سوف تحتضر على الشكل نفسه الذي تحتضر به الشمس، لا بل إن انفجار نجم يبلغ حجمه عدة أضعاف من حجم الشمس يصحبه إشعاع هائل جداً وبما قد يعادلُ إشعاعَ مجرّةٍ كاملة.

ولكنَّ آيتي «الطمس» و «الانكدار» لا تدلّان على مثل ذلك، بل هما تُشيران إلى عكسه تماماً، وهو ما يصلح أن يكون دليلاً على أن نجومَ مجرتنا الأخرى، ما خلا الشمس، لا تُحتَضَر يوم القيامة وهي، أي كل نجوم مجرة «درب التبانة»، لا يصيبها شيء من التناثر، بل إن ذلك هو ما يحدث للكواكب السيارة في منظومتنا الشمسية وحسب.

وهكذا فإن تفسير هاتين الآيتين بتناثر النجوم لا يملك أساساً من العلم قوياً. بل إن الأصحّ في تفسيرهما، وكما قد رأينا، هو ذهاب ضوء النجوم يوم القيامة والله أعلم.

وليس هناك من سببٍ للاعتقاد بأنّ مليارات المليارات من النجوم تخلو من

---

(١) انظر الحديث النبوي الشريف ص ١٠٦.

منظوماتٍ شمسيةٍ كالشمس، بل إن العكس هو الصحيح، حيث قد شهد القرآن الكريم والحديث الشريف بوجود عوالم أخرى لا نعرفها[1]، وهي يدل عليها أيضاً علم الاحتمالات. والمنظومةُ الشمسية، أيّةُ منظومة، تتكون من مجموعةٍ من الكواكب السيارة التي تدور حول نجمٍ واحد بسبب جاذبيته لها، وضَعف جاذبية النجم يمكن أن يؤدي إلى انفراط عَقْد هذه الكواكب وتناثرها، كلّها، مرةً واحدة. وأمّا بالنسبة إلى النجوم فلا يوجد شيءٌ من ذلك، حتىٰ إنّ تَداخلَ مجرّتَيْن في بعضهما لا يؤدي، في العادة، إلى أي ضررٍ لنجومهما، ونظراً للمسافات الشاسعة التي تفصل بين النجوم، فقد يخرج النجم في هذه الحالة، من مجرّةٍ ليدخلَ في أخرى من غير ما ضررٍ يصيبه[2].

وإذا كانت المجرّة تقوم قيامتها كلها يوم القيامة، فلماذا تُـكَوَّرُ الشمسُ وحدها إذاً؟ إن احتضار نجوم مجرّةٍ كاملة يستتبعه «تكوير» كل نجومها، أو «تعملقها»، لكن ذلك أمرٌ غير معروفٍ حدوثُه في الكون، بل المعلوم أن النجوم توجد في المجرة، أيةِ مجرة، في أطوار نموٍ وأعمار مختلفة، فمنها ما وقد وُلِدَ تُواً، ومنها الصغيرة، ومنها الشابة، ومنها الهرمة، ومنها المحتضرة في دور «العملاق الأحمر»، أو «النجمة النيوترونية النابضة»، أو «المُسْتَسْعِرِ الأعظم» المصحوب بِـ «الثقب الأسود»، ومنها ما هو «قزمٌ أبيض»، أو «قزمٌ أسود».

نتائج عن يوم القيامة:

١ ـ ينطمس ضوء النجوم ويختفي

٢ ـ لكن النجوم لا تفنىٰ ولا تتناثر.

٣ ـ إن الكواكب السيارة في المنظومة الشمسية (= الكواكب المتحيرة، كما قد

---

(١) جاء في الحديث الشريف: «لِلّهِ دارٌ بيضاء مشحونةٌ خلقاً كثيراً، مسيرةُ الشمس فيها ثلاثون يوماً مثل أيام الدنيا ثلاثين مرة، لا يعلمون أنَّ الله يُعصىٰ في الأرض ولا يعلمون أنّ الله خلق آدم وإبليس».

(٢) الكون ـ د. كارل ساغان، دار المعرفة، ١٩٩٣، ص ١٦٩.

أسموها قديماً) هي وحدها التي تتناثر في يوم القيامة، وبسبب قيام قيامة الشمس، و «احتضارها».

لماذا يذهب ضوء النجوم يوم القيامة؟

وأما وقد توصلنا إلى هذه النتيجة فإننا نسأل: إذا افترضنا أن النجوم، ما خلا الشمس، قد بقيت موجودة، يوم القيامة، على حالتها الأصلية، ومن دون أي تغيير، فهل يمكن للناس يومئذ أن يروها؟

إن الآيات التالية تحمل لنا سرّ اختفاء ضوء النجومِ وانكدار السماء يوم القيامة:

١ ـ ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾، أي كالزيت العكر أو المعدن الذائب.

٢ ـ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾، أي حمراء كَدِرَة كالدُّهن الذائب من الحرارة، أو كالأديم الأحمر.

٣ ـ ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾، أي بالسُّحُب المتراكمة التي تغطّي الأرض.

٤ ـ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾، أي كالصوف المندوف إذا طيّرتْه الريح.

٥ ـ ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، أي فُـتّـتَـتْ فصارت غباراً يتطاير ويتفرق في الأرض.

٦ ـ ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، شيئاً كلاشيء، بسبب سيرها في الفضاء وتفتّتها وانتشار غبارها الذي يُرى كالسراب، يُرى من بعيدٍ كأنه بحرٌ وليس هو كذلك.

٧ ـ ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾، أي دُكّت واقتُلعت.

٨ ـ ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، أي دكّاً متتابعاً.

٩ ـ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ .

إنّ هبوب ريح بسيطة يجعلها تُطايِرُ من الغبار ما قد يكفي لطمس مَرْأىً ما هو قريبٌ قريب منا، فما أيسر أن ينطمس ضوء النجوم بسبب بعض الغبار، أو الغيوم، لا بل إن بعض الرطوبة في الجو، من غير ضبابٍ ظاهر، قد يطمس ضوء النجوم، فما بالك بما قد ذكرناه من الاضطراب العظيم يوم القيامة، من دخانٍ يَلُفّ الأرض، وعكرةٍ حمراء للسماء كعكرة الزيت المذاب، وتفتيتٍ للجبال حتى إنها تصير كالصوف المنفوش، وزلازل مهولةٍ للأرض، وتبخّرٍ للمحيطات، كلٌّ ذلك وغيره يكفي ويزيد لتلبيد جو الأرض وذهاب ضوء النجوم.

معنيان لِـ «الكواكب» في كتاب الله

تعني كلمة «الكواكب»، في كتاب الله، النجومَ أحياناً، كما قد تعني الكواكب السيارة في أحيانٍ أخرى.

● ﴿ . . وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ . . ﴾ [فُصِّلَت: ١٢].

والمصابيح هي النجوم، لا شك.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصّافات: ٦].

من الواضح أن الكواكب هنا هي المصابيح، أي النجوم.

● ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار: ٢].

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ . . ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

قلنا إنّ الأدلة تشير إلى أنّ القيامة، قيامة العالم الذي نعرفه ونعيش فيه، تنحصر والله تعالى أعلم، باحتضار الشمس، أو تكوّرِها، وقيام قيامة الكواكب السيارة، أي «السماوات والأرض»، وأن يوم القيامة ذاك لا يصيب النجوم الأخرى غير الشمس.

* * *

ولقد قلنا بأن العرب قد أطلقوا لفظ الكواكب، قديماً، على كلٍّ من النجوم والكواكب السيارة كما ندعوها اليوم، وأنهم لم يفرّقوا بينها، ذلك لأنها تبدو متشابهة في رأي العين، اللّهم إلاّ أنهم قد أسموا الأولى بـ «الكواكب الثابتة»، وأسموا الثانية بـ «الكواكب المتحيّرة».

* * *

وكذلك فإن كلمة «الكواكب» قد جاءت، في كتاب الله تعالى، في معنيين اثنين مختلفين.

فالمقصود بالكواكب في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ هو نجوم مجرتنا لا شك.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ فالمقصود به هو الكواكب السيارة في منظومتنا الشمسية، لا النجوم.

ولَرُبَّ سائلٍ يسأل:

هل من المعقول أن يجيء هذا اللفظ الواحد «الكواكب» بهكذا معنيين مختلفيْن في كتاب الله؟

والجواب نعم طبعاً، ومِثْلُه مِثْلُ لفظ «السماء»، و «السماوات»، التي جاءت بمعانٍ عديدة تطرّقنا إليها في كتاب «أسرار الكون في القرآن».

وهل من المعقول أن يجيء لفظ «الكواكب»، و «السماوات السبع»، أو «السماوات» متبوعةً بذكر الأرض، وهو ما قد فسّرناه بالسماوات السبع أيضاً، دالاً على شيءٍ واحد هو الكواكب السيارة في منظومتنا الشمسية؟

الجواب أن ذلك مِثْلُهُ كمِثْلِ وصفه تعالى للنجوم بـ «الكواكب» تارةً، في قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾، ووصفها بـ «المصابيح» تارةً أخرىٰ في قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾.

ما هي الحكمة من وصف الله تعالى للكواكب السيارة بلفظ «السموات السبع» تارةً، ولفظ «الكواكب» تارة أخرى؟

إنّ للّهِ سبحانه أن يجيء في تنزيله العزيز كيفما اقتضت مشيئته وحكمته من الهدى والبيان، أو في جريان الأسرار. إلا أنه لا بد من أنّ هناك سبباً وجيهاً جداً لوصف «الكواكب السيارة» بلفظين اثنين مختلفيْن، وإذا نحن بحثنا عنه لوجدناه بِيُسر.

كان العرب يطلقون كلمة «الكوكب» على كل جُرمٍ نيِّر في الفضاء، نجماً كان أو كوكباً سيّاراً، والحقُّ سبحانه يخاطبُ الناس بأن يسمّي الأشياء بمسمّياتها المعروفة عندهم، لكن القرآن الكريم مقصودٌ به مخاطبة الناس في جميع الأزمان، فهو قد خاطب القدماء، مثلما هو يخاطبنا، نحن الذين نعيش اليوم، أيضاً، وبما قد عرفناه من حقيقة الكواكب السيارة. لقد جاء وصف الكواكب السيارة، دائماً، وفي العديد العديد من الآيات، بـ «السموات السبع» أحياناً وبلفظ «السموات» من دون تحديدٍ أحياناً أخرى. وهناك استثناءٌ واحد هو في وصفه تعالى للكواكب السيارة بـ «الكواكب» مرّةً واحدة لا غير في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾، والأخيرة هي تسميةٌ للشيء باسمه المعروف به بين الناس من جانب، ثم إنها ومن الجانب الآخر تُخفي إعجازاً آخر يتمثل في أنها تشير، في حقيقة الأمر، إلى شيءٍ آخر، إلى كونها كواكب سيارة، كما نعرف اليوم، لا نجوماً.

وأما وصفه تعالى لتناثر الكواكب السيارة بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾، فإن البديل الآخر هو أن يجيء وصفُها هكذا: (وإذا السمٰوات انتثرت)، وهو وصفٌ لو جاء فلربّما شكّ عوامّ الناس في صحة هذا القول في ذلك الزمن الذي لم يعرف الناس فيه حقيقة السماوات السبع[1].

---

(١) ومِثْلُهُ ما جاء في كتاب «التفسير العلمي للآيات الكونية» لحنفي أحمد، قال:
«نرى أن قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه (على الراجح) حذفٌ تقديره: وسخّر الشمس والقمر والنجوم والأرضيْن كلٌّ يجري إلى أجلٍ مسمى؛ لحكمةٍ في التنزيل وهي أنه لو قال تجري الشمس والقمر وباقي الأجرام لَشكَّ عوامّ الناس في صحّة هذه الرواية، لأنهم لا يرون=

الشمس والكواكب السّيارة يوم القيامة

لا خلاف على احتضار الشمس يوم القيامة، وهو ما نراه في قوله تعالى في بداية سورة التكوير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، إضافة إلى الأرض والقمر، لكن احتضار الشمس يعني قيام قيامة المنظومة الشمسية كلها، بكواكبها السيارة وبأقمارها، أيضاً.

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾

الانفطار: ٢

المعجم الوجيز:

انتثر = تناثر: تفرّق.

نَـثَـرَ الشيء: رمىٰ به متفرقاً. يُقال نَـثَرَ الحَبَّ، ونثرت الشجرةُ حَمْلَها.

المنجـد:

انتثر الشيء: تناثر وتَـنَـثَّر، أي تساقط متفرقاً.

إذا كانت الأرض، يوم القيامة، تُدَكّ، وتُزَلْزَل، وتَرْجُف، وجبالُها تتفتّت، وغلافُها الجوي ينشقّ، أي سماؤها، فتنفرج وتُكشَط وتصير أبواباً، إذا كان ذلك هو ما يصيب الكرة الأرضية ببرّها وبحرها وجوّها.

وإذا كان القمر ينشقّ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾(1)[القمر: ١].

فإنه، وقد احتُضِرَت الشمس، لا بد للكواكب السيارة وأقمارها من المصير نفسه، مصير التمزّق والتفتّت والانفلات من أسْر جاذبية الأم المحتضرة، الشمس، والخروج بعيداً عن مداراتها التي تدور فيها حول الشمس.

إنه التناثر، تناثر الكواكب السيارة.

= سوى الشمس والقمر يتحركان بحركة واضحة في السماء، ولذلك اقتصر على ذكرهما وترك لخواص الناس معرفة تسخير باقي الأجرام لحركة الجري بالبحث والاستنباط، ولهذه الحكمة في التبليغ مثيل في آية السبح».

(١) انظر ص ١١١.

الباب الرابع

«قيامة الشمس»

١ ـ نهاية الشمس والنجوم التي تماثلها

ما هي الشمس؟[1]

هي أقرب النجوم إلينا، وهي كرةٌ غازيّـةٌ ملتهبةٌ عظيمة، تتكون أساساً في ٧٥٪ منها من الهايدروجين، و ٢٥٪ من الهيليوم[2] تقريباً، وهي متماسكةٌ إلى بعضها البعض بفعل قوة الجاذبية الناتجة عن كتلتها.

الشمس هي مفاعل اندماجي نووي (هايدروجيني) عظيم

إنّ ضوء الشمس الذي نراه يتكون عميقاً في داخلها في فرنٍ عظيم الحرارة، وينتج عن تفاعلات نوويّة حراريّة[3]، تشبه التفاعلات النووية التي نعرفها والتي تلتحم فيها ذرّات الهايدروجين لتكوين ذرات الهيليوم، ممّا يحرّر كمياتٍ هائلة من الطاقة بعضها هو مصدر الضوء الذي نراه، وهو فوتونات أشعة «غاما» (photons)، والحرارة التي نحسّ بها، وهي الأشعة تحت الحمراء، وهي مصدر الحياة التي خلقها الحق سبحانه وتعالى على الأرض.

وتقوم الشمس، في كل ثانية، بتحويل (٦٠٠) مليون طُنٍّ من غاز الهايدروجين

---

(١) مقتبس عن كتاب «هذا الكون العجيب، من الذرّة إلى المجرّة»، للمؤلف.

(٢) تمّت دراسة طيف ضوء الشمس فظهر خط طيفي ظن العلماء أولاً أنه متسبب عن وجود الصوديوم في الشمس، ثم أُثبِت بعدئذٍ أنه ناتج عن عنصرٍ جديد لم يكن معروفاً على الأرض من قبل، فأسمي بالهيليوم (Helium)، نسبة إلى كلمة (Helios) الإغريقية، وهي تعني الشمس.

(٣) التفاعل النووي الحراري: هايدروجين $\xrightarrow[\text{ضغط مرتفع}]{\text{حرارة مرتفعة}}$ هيليوم + طاقة عظيمة

إلى (٥٩٦) مليون طُنّ من غاز الهيليوم، وتنتج عن هذا التفاعل طاقة تبلغ (٣٨٠) ألف مليار كيلو واط، وهو ما يحمل مياه محيطات الأرض كلها على الغليان في ثانيةٍ واحدة.

إنّ داخل الشمس هو أشبه بأتُّونٍ عظيم الحرارة، حيث تصل حرارتُها إلى ما يقرب من ٢٠ مليون درجة مئوية. إن الضغط الناشىء عن تجمّع المكونات الهائلة للشمس ينشأ عنه ضغطٌ هائل هو السبب في رفع درجة حرارة وسط الشمس، وهو ما يؤدي إلى ازديادٍ عظيم في حركة مكوّنات نوى الذرات، وبما لا يسمح لها بالتنافر عن بعضها، فتصطدم ببعضها بقوةٍ عظيمة تؤدي إلى حدوث تفاعلٍ اندماجيٍ نووي في داخل الشمس. وهكذا تلتحم كل (٤) ذرات من الهايدروجين مؤلفةً ذرة واحدة من الهيليوم. وفي كل مرة تصنع فيها الشمس ذرة هيليوم فإنها تشعّ جسيمة فوتون واحدة. إن ضوء الشمس المرئي يتألف من جزيئات الفوتونات هذه، وهي لا كتلة لها، وتبلغ سرعتها (٣٠٠) ألف كيلومتر في الثانية، وكذلك فإن ضوء نجوم سماء الليل التي نراها ناجمٌ عن تفاعلات الاندماج النووي البعيدة في النجوم.

هل إنّ الطاقة الشمسية الناتجة ثابتة؟

إن التفاعل النووي الاندماجي في النجم لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، إذ لا يوجد في الشمس وبقية النجوم إلاّ قَدْرٌ معيّن من الوقود الهايدروجيني، وهكذا فإن مصير النجم يتوقف، إلى حدٍّ كبير، على كتلته. ويقول العلماء بأن عمر الشمس يبلغ حوالى ٥ مليارات من السنين، وهم يعتقدون بأنه لا يزال هناك للشمس ما يكفي من الهايدروجين حتى تشعّ لخمسة مليارات عامٍ آخر.

ونحن نضيف إلى ذلك قولنا:

١ ـ إنّ الله تعالى قادرٌ، وفي أيِّ وقت، وبلمح البصر، على أن يُنْهِيَ الشمس أو غيرَها ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

٢ ـ إنّ العلم، ومهما بلغ من التقدم، فهو لا يزال قاصراً قصوراً شديداً، وإنك

لن تجد عالِماً يمكنه الادّعاء بأنه يعرف كل شيء وأنه مدركٌ لكل الظروف والمتغيرات الحالية واللاحقة، وأنه متأكد من كل ما يقول، وسواء أكان ذلك في الشمس أم في غيرها، لا بل إن العالِم ليس في عالَمنا الفسيح إلاّ كالطفل الرضيع في مكتبة عظيمة. إنه يمكنه أن يدرك بعض الأشياء وما أقلّها، ثم هو يضع الفرضيات في تفسيرها، وهو ما أكثر ما يغيّر من تلك الفرضيات، وما أكثر ما يختلف العلماء في ذلك.

«النيوترينو»

خذ مثلاً موضوع الـ «نيوترينو» (Neutrino). إن الشمس تتوهج بشكلٍ ضعيف بِـ «النيوترينو»، وهو إشعاعٌ ضعيف آخر غير فوتونات الضوء المِرئي. إن «النيوترينو» ليس نوعاً من الضوء، ونحن لا نراه. وهو كالفوتون لا وزن له، كما أنه يسير بسرعة الضوء مثله. إلا أنه يختلف عن الفوتون ويشابه الإلكترونات والنيوترونات، في أنّ له قوةَ دفعٍ ذاتيةً دائمية. هذه «النيوترينوات» العجيبة لا يعترض سيرها شيء، فالمادة شفافةٌ بالنسبة إليها. أمكن للعلماء الكشف عن وجود «النيوترينو» بوسائلَ خاصة. والسؤال هو: لِمَ هو تدفّق «النيوترينوات» ضعيف، أي أن عددها قليل؟

يظنُّ بعض العلماء أن «النيوترينو» يتفتّت عند مروره بين الشمس والأرض، بينما يعتقدُ آخرون أن النيران النووية في داخل الشمس قد خمدت مؤقتاً، وأن ضوء الشمس ينبعثُ حالياً وبشكلٍ جزئي من التقلص الجاذبي البطيء[1]، وهي نظريةٌ خطيرة، لأنها تدلّ على أن نهاية الشمس، أو قيامتها، هي أقربُ بكثيرٍ مما يفترضه العلماء.

٣ ـ إنّه لمن غير المنطقي أن يكون قولنا باستمرار إشعاع الشمس كما هو عليه الآن كقولنا باستمرار وجود الشمس ذاته، لأن أي تَغَيُّرٍ في الشمس، ومهما كان طفيفاً، يمكن أن تكون له آثار جسيمة في الكواكب السيارة وفي الأرض والحياة فيها.

---

(١) الكون، د. كارل ساغان، عالم المعرفة، ١٩٩٣، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠

نهاية الشمس

قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ. .﴾ [القصص: ٨٨].

وقال: ﴿. . كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى. .﴾ [الزمر: ٥].

إنّ الشمس، مِثْلُها مِثْلُ كلِّ النجوم الأخرى، تولد وتنمو وتنضج، ثم هي من بعد ذلك تشيخ وتُحتَضَر وتموت، وعندما ننظر إلى صفحة السماء ونرى النجوم القريبة منا في مجرّتنا فإننا نرى نجوماً في مراحل مختلفة من النضج، وفي أعمارٍ مختلفة، ويتبين من خلال مراقبة السماء بالمراصد الجبارة أن الكثير من النجوم يموت كل يوم، بل كل ساعة وثانية. وهكذا فلقد أثبت العلم الحديث أن لكل شيء مخلوقٍ، في الكون، بدايةً، وهو ما يعني أن له نهاية أيضاً، وعلى عكس ما اعتقد به المادّيون سابقاً.

عندما تَشيخ الشمس فإن الهايدروجين، في مركزها، سوف يُستهلك متحولاً كله إلى هيليوم، ويتجمع الأخير في مركز الشمس، كالرماد في وسط النار، وبكميات ضخمة، وهو ما يؤدي، وببطء، بعملية تحويل الهايدروجين إلى هيليوم للتحول إلى الطبقة الخارجية من الشمس، خارج هذه الكومة من «رماد» الهيليوم، وهو ما يعني أن الشمس سوف يكبر حجمها ويزداد توهجها. وهكذا فإن الشمس عند احتضارها، وقبل انهيارها، تصير نسخةً غريبة عن نفسها، وتصبح **«عملاقاً أحمر»** (Red giant) في آخرِ لُهاثه، وعندها تتمدد الشمس تدريجياً فيزداد ضوؤها، ويمتدُّ جوّها في الفضاء كنوعٍ من العواصف النجمية، ويزداد حجمها مئات المرّات، فتصير الشمس المتورّدة اللون والمنتفخة عملاقاً أحمر يغلّف كوكبي عُطارد والزُّهَرَة القريبيْن من الشمس وتلتهمهما، وقد تفعل الشيء نفسه بالأرض أيضاً. تتمدد الشمس حينئذٍ، مُشرفةً على الأرض التي تصبح شديدة الحرارة حتى في قطبيها، وفي النهاية فإن مياه البحر تبدأ بالغليان، وتتبخر مكونات الغلاف الجوي في الفضاء.

وفي الوقت نفسه فإن جاذبية الشمس الذاتية سوف تفرض تقلصاً جديداً على الهيليوم المتجمع في مركز الشمس والمتسبب عن احتراق الهايدروجين، وهو ما يؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة والضغط في مركزها فيتسبب في حدوث تفاعل اندماجي جديد، حيث تلتحم، هذه المرة، كل (٣) ذرات من الهيليوم وتكوّن ذرّاتٍ أثقل، من الكاربون، ثم من الأوكسيجين. إن كُلاًّ من هذين التفاعلين يساعد على إدامة إشعاع ذلك العملاق الأحمر: الشمس.

وكلٌّ النجوم وتموت

ظل علماء الفلك يعتقدون بأزلية النجوم حتى القرن التاسع عشر، ولم يكتشف علم الفلك حقيقة الأطوار التي تمرّ بها النجوم، وأنها، وكبقية المخلوقات، تولد وتنمو وتكبر وتهرم وتموت إلا في القرن العشرين.

بينما قد قدّر تعالى بأن النجوم تموت، وأن للشمس، كبقية النجوم، أجلاً مسمّىً تنتهي عنده.

قال سبحانه: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١].

وفي «لسان العرب»: هوى: سقط ومات.

وقال سبحانه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ . .﴾ [يس: ٣٨].

المُسْتَقَرّ: الأجل المسمّى والقدر أي الوقت الذي تنتهي فيه حياتها.

وقال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الرعد: ٢].

قال الدكتور عدنان الشريف: «إن الذي أقسم بموت النجوم قبل أن يتبيّن العلمُ ذلك بقرون جعل من هذا القَسَم دليلاً على صدق رسوله. فالمنطق السليم إذن يفرض علينا التسليم والالتزام بكل ما جاء من الوحي على لسان الرسول الحبيب لأن المصدر واحد».

ولادة النجوم واحتضارها

تمرُّ النجوم، في خلال حياتها، بتغيراتٍ بطيئة، فهي تبدأُ ككتلةٍ عظيمةٍ من الغاز والغبار، وتنتهي بتغيّراتٍ عنيفة جائحة تشير إلى نهايتها.

وحسب النظريات الحالية فإن النجم يبدأُ حياته كتلةً باردة، ثم إن هذه الكتلة، وتحت تأثير قوة الجاذبية الذاتية، تنكمش إلى كتلة أصغر، وهو ما يتسبب في زيادة الضغط والحرارة في مركزها، فتصير كتلةً مشتعلة. تتزايد هذه الحالة تدريجياً إلى أن تصل الدرجة الكافية التي يحدث معها، بسبب ارتفاع الحرارة والضغط، تفاعلٌ نووي حراري اندماجي في مركز النجم، فتتحد كل (٤) ذرات من الهايدروجين لتكوين ذرة واحدة من الهيليوم، وهكذا يحصل النجم على طاقته. لقد عُرِفَت هذه الحقيقة، أول ما عُرِفَت، في أواخر الخمسينات من القرن العشرين. إن هذه الطاقة المتكونة، بالإضافة إلى أنها تجعل النجوم تشع بالضوء بانطلاق فوتونات أشعة «غاما»، فإنها تمنع النجم من أن ينكمش نحو مركزه بسبب الجاذبية الناشئة عن كتلته.

وهكذا نرى أن الشمس، مثل كل نجم، هي عبارة عن توازن بين قوتين متعاكستين في الاتجاه: قوة تؤدي بها إلى التمدد نحو الخارج بسبب الحرارة الناتجة عن الاندماج النووي، وقوة أخرى معاكسة تتجه نحو الداخل ناتجة عن قوة الجاذبية التي تمسكُ كُتْلَتَها إلى بعضها.

الشمس والنجوم التي تُشابهها في الكتلة

لقد رأينا كيف أن الشمس، وهي تُحْتَضَر، تنقلب إلى عملاقٍ أحمر يستمد طاقته من التفاعلات الاندماجية التي تحدث في أطراف الشمس المتوسّعة بدلاً من مركزها، وإننا لنرى حولنا، في مجرّة «درب التبانة»، الكثير من النجوم المحاطة بأغلفةٍ كروية من الغاز المتألق أو «الغيوم السديمية» التي تبدو كالحلقات التي يُشبِّهُها

علماء الفلك بالفقاعات. إن كلاً من هذه النظم السديمية هو إعلانٌ على نجمٍ في دور الاحتضار، نجمٍ يشابه الشمس في كتلتها.

بعد ذلك يُستهلَك الهيليوم كله داخل مركز الشمس ويضعف مصدر طاقتها، فتشعُّ بصورةٍ ضعيفة، ثم هي تنتهي بأن تَلْفِظَ جَوَّها إلى الفضاء فتفقد نصف كتلتها تقريباً، وأما لُبُّها فإنه يبرد تدريجياً وينكمش، ثم تصير «قزماً أبيض» (White dwarf) والذي يظل يَلُفُّ في الفضاء.

نجومٌ تبلغ كتلتها ضِعفي كتلة الشمس

وهي لها نهايةٌ أخرى غير نهاية الشمس. فعندما يَستهلِكُ نجمٌ من هذا النوع وَقودَه النووي فإنه ينكمش انكماشاً عظيماً في ثوانٍ معدودات بفعلِ كتلته، إلاّ أن هذا الانكماش أو «الانسحاق» يتوقف عندما تُضغَطُ الذرات إلى بعضها البعض فتصير النواة جنب النواة ولكن من دون تداخل إحداهما في الأخرى، وعندها فإن قُطراً للنجم من ملايين الكيلومترات ينكمش إلى قطرٍ يبلغ (١,٥) كيلومترٍ فقط. وعندما يتوقف هذا الانكماش بفعل الابتعاد النووي المفاجىء تنطلق طاقة عظيمة على شكل حرارة تبلغ مئات الملايين من الدرجات الحرارية. وبسبب هذا الانفجار الفجائي يصبح النجم أكثر سطوعاً من بلايين الشموس، ويسمى عندئذ بـ«المُسْتَسْعِر الأعظم» (Super Nova)، وتتمزق أشلاؤه كلياً في الفضاء، ثم هو يخبو ضوؤُه بعد نحوٍ من عام، ثم إنّ ما يتبقىٰ منه هو سحابة من الغاز المنتشر الذي يختلط بسحابات الغاز الأخرى وينكمش لتكوين نجوم جديدة. أما قلب النجم المنكمش فهو يسمى بـ«النجمة النيوترونية»، لأن بروتوناته وإلكتروناته قد اتّحدت لتكوين النيوترونات، وتسمى النجوم الحديثة منها بـ«النجوم النابضة» (Pulser) لأنها تبدو نابضة في تلسكوبات الراديو، وهو ما ينتج عن تمددِ النجم ثم تقلصهِ في فتراتٍ دوريةٍ منتظمة.

ونجومٌ تصل كتلتها إلى (٥) أضعاف كتلة الشمس

وهي تنكمش، عند احتضارها، بشكلٍ آخر. إذ إنّ النجم ينكمش على نفسه بسرعةٍ أكبر وقوةٍ أعظم بسبب قوة الجاذبية الذاتية نحو داخله والناتجة عن كتلته العظيمة. وفي هذه الحالة فإن نَوى الذرات تُجْبر على التداخل في بعضها البعض، وينكمش النجم إلى جسمٍ صغير يسمى بِـ«الثقب الأسود» (Black hole) لا يزيد قطرهُ عن بضعة كيلومترات فقط إلا أنه ذو وزنٍ عظيم وقوةٍ جاذبيةٍ عظيمةٍ جداً. إنّ هذه الجاذبية الهائلة تسحب الضوء إلى الخلف فتمنعه من الخروج والإشعاع إلى خارج سطح النجم. فالثقب الأسود سُمِّي كذلك لأنه لا ضوءَ يمكنُه أن يهرب منه، ولذلك فهو لا يمكن رؤيته من الخارج، وأما في داخله، حيث يكون الضوءُ محتجَزاً، فهو مضيء.

الباب الخامس

«قيامة الشمس»

٢ ـ معجزات آية التكوير

آيةُ التكوير وما يصيبُ الشمس يوم القيامة

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١].

للشمس، عند احتضارها، مشهدان.

* أولهما ذلك الذي يراه مَن على سطح الأرض، وهو مشهدٌ يجلّلُه منظرُ الشمس المتعاظمة والمقتربة بلهبها من الأرض، وسُحُبُ الدخان الكثيف، والغبار، وانكدار الفضاء بما يشبه الزيت الأحمر.

* وثانيهما ممّا يراه البعيدُ عن الشمس كمِثْلِ ما نراهُ من نجمٍ قريب منّا، وهي صورةٌ تشبهُ صورة النجم المحتضَر الذي نراه على غلاف الكتاب، والذي يبلغ في حجمه حجمَ الشمس تقريباً، وهو ما يجعل العلماء يعتقدون بأن ذلك يعني أن نهاية الشمس هي كنهاية هذا النجم[1]. إنها صورةٌ مفزعةٌ لشمسٍ كانت كشمسنا لكنها احتُضِرَت وصارت «عملاقاً أحمر» كما يدعوها العلماء، وهو ما قد وصفه سبحانه بـ«التكوير» في قوله: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾.

فما هو التكوير؟

---

(١) رأينا في الباب السابق أن الطريقة التي يُحْتَضَرُ بها النجم تختلف باختلاف حجمه أو كتلته.

أقوال علماء اللغة

لسان العرب لابن منظور:

كُوِّرَت الشمس: جُمِع ضوؤُها ولُفَّ كما تُلَفّ العمامة.

وقيل غُوِّرَت (أي غابت).

كُورُ الحدّاد: الذي فيه الجمر وتوقَد فيه النار وهو مبنيٌّ من طين.

والكَوْر: الزيادة.

وكان (ص) يتعوّذ من الحَوْر بعد الكَور،

أي من النقصان بعد الزيادة.

قال الليث: الكَوْر لَوْثُ العِمامةِ يعني إدارتُها على الرأس.

المعجم العربي:

كُوِّرَت الشمس: جُمِعَ ضَوؤُها ولُفّ، واضمحلت، وذهبت، ودُهورت، ونُزِعَ ضوؤُها وغُوِّرَت.

المعجم الوجيز:

كَوَّرَ الشيء: لَفَّه على جهة الاستدارة.

وكُوِّرت الشمسُ: جُمِعَ ضوؤُها وصارت كالكرة.

كارَ في مشيته: أسرعَ.

المنجد:

كارَ العمامَة ونحوها على رأسه: لَفَّها وأدارها.

كُوِّرَت الشمسُ: جُمِعَ ضوؤُها ولُفَّ كما تُلَفُّ العمامة.

وكارَ في مشيته: أَسرعَ.

والكَوْرُ: الزيادة، أُخذَ من كَوْر العمامة.

والكُور: مَجْمَرَةٌ من طين.

أقوالُ علماء التفسير

الحسن البصري: مُحِيَ ضوءُها. وقاله قتادة ومجاهد، ورُوي عن ابن عباس أيضاً.

أبو صالح: نُكِّسَت.

ابن جرير: والصوابُ من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمعُ الشيء بعضه على بعض.

ومنه تكوير العِمامة، وجمعُ الثياب بعضها إلى بعض. معنى قوله (كُوِّرَت): جُمِعَ بعضُها إلى بعض ثم لُفَّت فرُمِيَ بها، وإذا فُعِلَ بها ذلك ذهب ضوءُها وأظلمت واضمحلّت.

أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة، تُلَفّ فتُمحى.

مغنية: التكوير في اللغة: اللف، والمراد سقوط الشمس وذهاب ضوئها.

مخلوف: أزيل نورها بعد انبساطه وانتشاره، فأظلمت، وأصل التكوير: التلفيف على وجه الاستدارة، من كَوَّرْتُ العمامةَ إذا لَفَفْتُها، تُجُوِّزَ به عما ذُكِرَ لعلاقة اللزوم، لأن الشيء الذي يُلَفّ يذهب انبساطه وانتشاره وتختفي آثاره[1].

نتائج

نخرج من أقوال علماء اللغة والتفسير بنتيجةٍ غريبة، وهي أنها تُجمع على أن تكوير الشمس يعني لَفَّها كَلَفِّ العمامة. وبينما هو يعني، أيضاً، ذهابَ ضوئها فإنه

---

(١) ورد عن ابن عباس (رض): ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال: يكوّر الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر، ويبعث الله ريحاً دَبوراً فَتَضرِمُها ناراً. أقول ولئن صَحَّت هذه الرواية فإن في ذلك إشارةً عجيبة إلى أن لهب النار يصل مياه الأرض فتغلي وتضطرم ناراً. أما كلامه على النجوم فنرى فيه إشارةً إلى «النجوم المنقضّة» (Falling stars)، أي الشُّهبُ، والتي يحمي الغلافُ الجويُّ الأرضَ منها، إذ هي يحترق أكثرها في أعالي الجو قبلِ وصولها إلينا. وأما وأن الغلاف الجوي يتشقق ويصير واهياً ثم هو يُزال كله (يُكشَط)، فإنه لا حمايةَ يومئذٍ لمن في الأرض من هذه الشهب أو «النجوم المنقضة». وكذلك قال الكلبي: تُمْطِرُ السماءُ يومئذ نجوماً فلا يبقى نجمٌ في السماء إلاّ وقع على وجه الأرض.

يعني، ومن الناحية الأخرى، زيادة حجمها. وهي معانٍ غريبةٌ حقاً لأنها تبدو، في ظاهرها، متناقضةً تماماً، إذ كيف هي يزيد حجمها ويذهب ضوؤُها في الوقت ذاته؟ ثم ما هو هذا اللّف كلَفِّ العمامة؟

لقد قلنا بأن الشمس تتحول، عند بدء احتضارها، إلى «عملاقٍ أحمر» (Red giant)، وهو اصطلاحٌ اصطلحه علماء الفلك، في العصر الحاضر، لكل النجوم المُحتَضَرة التي تقارب كُتَلُها كتلةَ الشمس. واصطلاحُ «العملاق الأحمر» هذا يدلّ، وكما ذكرنا سابقاً، على أمرين اثنين:

١ ـ «العملقة»: تصير الشمس «عملاقاً عظيماً»، و«عندما تبلغ الشمس قِمَّة العملاق الأحمر فإنها تتمدّد (١٠٠) مرة حسب قطرها الحاليّ، أي ستصل إلى مكان عُطارد ثم الزهرة، وبالتالي تصبح قريبةً من الأرض فترتفع الحرارة بشكل يجعل الأرض تتبخّر تماما»[١].

«وتصبح الشمس نجماً أحمرَ عملاقاً يبعد سطحها المرئي عن داخلها لدرجةٍ تضعف معها جاذبية هذا السطح، بينما يمتد جوّها في الفضاء كنوعٍ من العواصف النجمية. وعندما تصبح الشمس المتوردة اللون، والمنتفخة، عملاقاً أحمر، فإنها ستغلِّف كوكبي عُطارد والزُّهرة وتلتهمهما، وربما تفعل الشيء نفسه بالأرض أيضاً. . وستحرّرُ درجاتُ الحرارة العالية في المحيطات المزيدَ من بخار الماء إلى الجو، فتزداد الغيومُ وتحجب ضوءَ الشمس عن الأرض مؤخّرةً النهاية قليلاً، ولكن التطور الشمسي لن يرحم. ففي نهاية المطاف سوف تغلي المحيطات[٢] ويتبخر الجو في الفضاء[٣] وتحل بكوكبنا كارثة ذات أبعاد لا يمكن تصورها»[٤].

٢ ـ الاحمرار، فهي تصير حمراء بدلاً من لونها الأبيض، الساطع، «والنجم ـ

---

(١) احتمالات نهاية الكون. إعداد قسم التأليف والترجمة. دار الرشيد، ١٩٨٨.
(٢) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].
(٣) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١].
(٤) الكون، د. كارل ساغان، ترجمة نافع أيوب، عالم المعرفة، العدد (١٧٨) ١٩٩٣، ص ٢٠٢.

أي الشمس ـ يبدأ بالتّضخّم في تسارع، ومع التمدد تزداد الطاقة الكليّة التي يشعُّها النجم، لكن تلك الطاقة تنتشر على سطحٍ هائل بسرعة، أي أن حرارة أي جزء من السطح تنخفض. وهكذا يبرد السطح إلى الدرجة التي يلمعُ معها بلونٍ أحمر ساخن بدل اللون الأبيض الذي يميز النجم الفتيّ، إذ إن النتيجة التي نصل إليها هي مرحلة العملاق الأحمر. كل النجوم، عاجلاً أم آجلاً، ستصل إلى مرحلة العملاق الأحمر»[1].

ولا شك في أن النيران الحمراء الملتهبة والعظيمة والمقتربة من الأرض سوف تكون مصحوبة بسحبٍ هائلة لا تُتَصَوَّر من الدخان والغازات، كما أن ما يصيب الأرض من تبخّرٍ للمحيطات وتفتّتٍ للجبال، إلخ، سوف يؤدي كله إلى حجب ضوء الشمس المباشر، وذلك لأنها لم تعد ذلك المصباح، أو السراج، المتوهج الأبيض العظيم، بل صارت مصدراً خافتاً نسبياً وكليلاً للضوء رغم ازدياد حجمها. ثم إن ضوءَها يصير مائلاً إلى الاحمرار بعد أن كان أبيض.

الأغلفة «الكُرَويّة»

إن الشمس وهي تُحْتَضَر، تنقلب إلى عملاقٍ أحمر يستمدُّ طاقته من **التفاعلات الاندماجية التي تحدث في أطراف الشمس المتوسعة بدلاً من مركزها**. وإننا لنرى حولنا، في مجرّة درب التبّانة، الكثير الكثير من النجوم المحاطة **بأغلفةٍ كُـرَويةٍ** من الغـاز المتـألّق أو «الغيوم السديمية» التي تبدو **كالحلقات** التي يشبِّهُها علماء الفلك **بالفقاعات**. إن كلّاً من هذه النظم السديمية هو إعلانٌ على نجمٍ في دور الاحتضار.

سبعة وجوه لكلمة «التكوير»

فانظر كيف أن كلمة «التكوير» في كتاب الله تعالى، قد جاءت تعبيراً جامعاً مانعاً، وفي كلمةٍ رائعةٍ واحدة، عن حقيقة الأمر كلِّه في قيام قيامة الشمس.

---

(١) احتمالات نهاية الكون.

١ ـ فالشمس **تتضخم** و«تتعملق» (الكَوْر = الزيادة).

٢ ـ وهي **يتسارع** تضخمها (الكَوْر = الإسراع).

٣ ـ وتصير **حمراء** (ككور الحدّاد)، ويشهد لذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾، أي حمراء بلونِ الورد.

٤ ـ وتتركّز تفاعلاتها النووية **في أطرافها فتصير كالحلقات أو الفقاعات**، حسب الاصطلاح الفلكي الحديث، أو كَـ(العمامة المكوَّرة أو الملفوفة)، وهو المعنى الذي قد أطبق عليه المفسرون لكتاب الله تعالى (كُوِّرَت: لُفَّتْ كالعمامة).

٥ ـ وهي، إلى ذلك، **يتضاءلُ ضوؤُها** الذي يصلُ إلينا (كُوِّرَت: ذهبَ ضوؤُها).

٦ ـ وبينما أن ضوءها يتضاءل فإن **حرارتها التي تصلنا تتزايد** فتصير كَكُور الحدّاد (الكَوْر= الزيادة)، وكُور الحدّاد مَجْمَرَتُه التي ينفخ فيها فتزداد حرارتها.

٧ ـ كلُّ ذلك ليس هو من باب الفُتُوَّةِ والنشاط، بل من باب **الاحتضار** (كُوِّرَت: اضمحلّت وذهبت).

هذه، في اللغة، سبعة من وجوه، أو معاني، كلمة «التكوير». وكُلُّها ينطبق على واقعِ حال الشمس، في اللغة يوم القيامة.

معجزةٌ، بل معجزاتٌ باهرات، لآية «التكوير»

حقّاً إنَّها لمعجزةٌ، بل معجزاتٌ، عديدة، رائعة، تتكشَّف لنا في عصرنا الحاضر. معجزةٌ جاء بها الحقُّ سبحانه وتعالى في تنزيله الحكيم قبل أكثر من (١٤) قرناً من الزمان. إنّ كلَّ ما يصيبُ الشمس عند احتضارها، أو قيام قيامتها، وهو من بعدِ ذلك سببٌ لقيامِ قيامة المنظومة الشمسية كلِّها وانتثار كواكبها، قد جاء في كلمةٍ رائعةٍ مُعجزةٍ واحدةٍ اختصرت الأمرَ كلَّهُ: التكوير!

ولسوف نرى في جدول المقارنة التالي أن الأحاديث الشريفة هي توضيحٌ وتفصيل لِما قد جاء في كتاب الله تعالى حول يوم القيامة، وأن مكتشفات العلم في العصر الحاضر تصدِّقُ ما بين أيدينامن القرآن والحديث.

فسبحان الله إذ يتطابقُ ما اكتشفه العلمُ الحديث من حقائقَ عن قيام قيامة منظومةٍ شمسية، أو نجومٍ، كمنظومتنا الشمسية، مع ما جاء في كتاب الله وحديث رسوله (ص) عن يوم القيامة.

تنبيه

يخمن العلماء، تخميناً، عمر الشمس حتىٰ الآن، بأنه يصل إلىٰ ١٠ مليارات من السنين، ومثلها في الآتي من الزمان. ولئن استمر العلماء، في محاولاتهم تلك، يغيّرون من تكهناتهم الفينة بعد الفينة، فلا بدّ من التنبيه إلىٰ أمرين اثنين مهمين:

أولهما أن الأمر لا يزيد، في نظرهم، علىٰ التخمين المحض. وأنْ تُراقبَ الشمس، أو غير الشمس، وتدرسَها عاماً أو عشرة أعوام، في عمرها الذي قد يصل إلىٰ مليارات السنين، فإنّ ذلك إنْ هو إلاّ كلمح البصر أو أقل بالنسبة إلىٰ عمرها المديد. إن الأمر لا يزيد علىٰ التخمين الذي لا يمكننا أن نؤكد منه إلاّ أنه عرضة للتغيير من قبل العلماء أنفسهم.

وثانيهما أن الساعة، بل وأمر الكون كله، بيد الله تعالىٰ وحده، وأن القيامة، وكما جاءت بذلك الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، هي من علم الله تعالىٰ وحده، وأنها تَفْجَأُ الناس. فلا يتصورنّ أحدٌ أن قيام قيامة الأرض والمنظومة الشمسية إنما هو رهن بحسابات العلماء وتكهناتهم، بل إنها من أمر الله تعالىٰ وحده. إن الله سبحانه هو خالق القوانين والسنن في كونه الذي خلقه، وهي ليست خارجة عن أمره، بل إنه يفعل ما يشاء، وهي دونه مطيعة، تأتمرُ بأمره، وتخضع لحكمه.

مقارنة بأحداث يوم القيامة

في كتاب الله تعالى حديث رسول الله (ص)، وأقوال علماء الفلك الحديث

القرآن الكريم	حديث رسول الله (ص)
﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] التكوير: ● كالعمامة الملفوفة ● تضخمٌ واقتراب منا ● تسارعٌ ● احمرار ● تضاءلٌ للضوء ● ازدياد الحرارة الواصلة إلينا ● احتضار	عن المقداد (رض) قال: سمعتُ رسولَ الله (ص) يقول: **«تُدني الشمسُ يومَ القيامة من الخَلْق حتى تكون منهم كمقدار ميل»** قال سُلَيْم بْنُ عامرِ الراويّ عن المقداد: فوَالله ما أدري ما يعني بالميل، أمسافةَ الأرض أم الميلُ الذي تكتحل به العين «فيكون الناس على قَدْرِ أعمالهم من العَرَق، فمنهم من يكون إلى كَعْبَيْه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقْويه، ومنهم من يلجمه العَرَقُ إلجاماً» وأشار رسول الله (ص) بيده إلى فِيه. صحيح مسلم، الحديث (٢٨٦٤) **«يجمعُ الله الأوّلين والآخرين في صعيدٍ واحد، فيُبصرهم الناظر، ويُسْمِعُهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيبلغُ الناسُ من الغَمّ والكَرْب ما لا يُطيقون ولا يحتملون»**. صحيح البخاري، ٦/ ٢٦٤
﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١]	عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي معاوية، عن عاصم، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: **«تُعطي الشمسُ يوم القيامة حَرَّ عشر سنين ثم تُدني من جماجم الناس حتى تكون قاب قوسين. قال فيعرقون حتى يرشح العرق في الأرض قامة..»** «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» للقرطبي، ص ٢٧٣ ذكر ابن المبارك، أخبرنا ملك بن مغول، عن عبيدالله بن العيزار قال في يوم القيامة: **«وإن الشمس تَدْنىٰ من رؤوسهم حتى لا يكون بينها وبين رؤوسهم، إما قال ميلاً أو ميلين ثم يُزاد في حَرّها بضعة وستّون ضعفاً»**. المصدر السابق، ص ٣٨٣
﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]	**«وحُمْرةٌ تظهر في السماء وتنتشر في أُفُقِها وليست كَحُمْرَةِ الشفق المعتاد»**. «عقد الدرر في أخبار المنتظر وهو المهدي» ليوسف بن يحيى المقدسي السُلمي الشافعي، ص ١٧٨
﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ..﴾ [الفرقان: ٢٥] ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢] ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧ ـ ٩] ﴿.. وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ..﴾ [الزمر: ٦٧]	عن عقبة بن عامر الجهني (رض) عن رسول الله (ص): **«تطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الترس ـ ما يُتّقى به السيف ـ، ووجه الشبه الاستدارة والكثافة، لا القدر، فما تزال ترتفع السماء حتى تملأ السماء ـ ثم ينادي مُنادٍ.. أيها الناس ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]»** عن حذيفة (رض) عن رسول الله (ص) في أشراط الساعة، قال: **«فعند ذلك يظهر الدخان. قلت يا رسول الله، وما آية الدخان، قال «يُسمَع له ثلاث صيحات، ودخان يملأ ما بين المشرق والمغرب.. وخسفٌ بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وخروج الدابة»**.

«عندما ننظر حولنا في تلك الزاوية الصغيرة من مجرة درب اللّبانة نرى الكثير من النجوم المحاطة بأغلفة كروية من الغاز المتألق أو الغيوم السديمية الكوكبية. وهي تبدو كحلقات، ولكن ذلك لأنها، على غرار فقاعات الصابون التي نراها في محيطها أكثر مما في مركزها. وعموماً فإن كل منظومة سديمية هي علامة على نجمٍ في دور الاختصار».

«الكون»
تأليف: د. كارل ساغان
ترجمة: نافع أيوب
سلسلة «عالم المعرفة»، ص ٢٠٣ العدد ١٧٨ (١٩٩٣)،

«سوف تحمر الشمس وتتمدد ببطء، مُشرفةً على الأرض التي تصبح شديدة الحر حتى في قطبيها. وسوف تذوب عندئذ ثلوج القطبين الشمالي والجنوبي وتغمر الفيضانات شواطىء العالم. وستحرر درجات الحرارة العالية في المحيطات المزيد من بخار الماء إلى الجو، فتزداد الغيوم وتحجب عن الأرض ضوء الشمس مؤخرة النهاية قليلاً. ولكن التطور الشمسي لن يرحم. ففي نهاية المطاف سوف تغلي المحيطات».

المصدر ذاته، ص ٢٠٢

«ويتبخر الجو في الفضاء».

المصدر ذاته، ص ٢٠٢

«بمرور الزمن، فإن الشمس تزداد حجماً وسرعة إضاءة، ثم تنتفخ عند جوانبها وتأخذ في البرودة إلى أن تصبح عملاقة حمراء. وعندها سيكون في مقدور طبقتها الجوية الرقيقة الهائلة أن تبتلع كوكب عطارد ثم الزهرة، ومن الممكن الأرض! ولكن، عند نمو احمرارها، فإن بروزها يقارب وصوله إلى الأرض، وعندها سوف لن يكون في إمكان الشمس التهام أكثر من شُعبة صخرية ملتهبة، لأنها تكون قد قَضَتْ، قبل زيادة ضوئها وحرارتها، على أي حيّ، وبعد ذلك يأتي زمن اختفاء الشمس من المشهد المعلوم)

«الأجرام السماوية»
تأليف: غيدو روجيري
ترجمة: عبد اللطيف أبو عرقوب
(١٩٨٤)، ص ٢٣٩.

«وعندما تصبح الشمس المتوردة اللون، والمنتفخة، عملاقاً أحمر، فإنها ستُغلِّف كوكبي عطارد والزُّهَرَة وتلتهمهما، وربما تفعل الشيء نفسه بالأرض. آنذاك سيستقرّ الجزء الداخلي من النظام الشمسي داخل الشمس»

«الكون»، ص ٢٠٢

الباب السادس

القمر يوم القيامة

القمر يوم القيامة

١ ـ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

٢ ـ ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ . وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [القيامة: ٨ و٩].

قال **الشيخ مغنية**: «ذَكَرَ سبحانَه انشقاق القمر مقروناً بذكر الساعة، ومعنى هذا أن الانشقاق يحدث يوم القيامة، وفي سورة القيامة: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ . وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ والقرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً».

وقال **الشيخ مخلوف**: «(اقتربت الساعة) قَرُبَت القيامةُ جداً. (وانشقّ القمر) وانفلق فِلقتين معجزةً له ﷺ وهو بمكّة قبل الهجرة بنحو خمس سنين، والأحاديث الصحيحة في هذه المعجزة كثيرة. وقيل: اقتربت الساعة، فإذا جاءت انشقّ القمر بعد النفخة الثانية».

وقال **الدكتور عدنان الشريف**: «انشقّ القمر في زمن الرسول الكريم كمعجزةٍ أيّدَهُ المولىٰ بها عَلَّ كفّارَ مكّة يؤمنون. هذا ما نفهمه من السياق القرآني ونؤمن به، وذلك ما شرحته الأحاديث في كتب الصحاح، فانشقاق القمر والإسراء والمعراج وقتال الملائكة في بدر هي من المعجزات والبراهين التي أيّدَ بها المولى رسولَه وجاء ذِكرُها في القرآن الكريم ولا يجوز للمؤمن أن يشكِّك بها.

لقوله تعالى وجهٌ علمي آخر: فنحن نفهمه، والله أعلم، مشهداً من اقتراب الساعة، بمعنى أنه عندما تقترب الساعة سينشقُ القمر، وحسابات علماء الفلك اليوم تتوقع بأن الشمس قبل أن تموت سيكبر حجمها مئات المرّات، وستقضي حينئذٍ على

الكواكب التي تتبعُها ومنها الأرضُ والقمر، وبعدها تموت وتتحول وبقية الكواكب والنجوم إلى كتلةٍ بدائية مجتمعة كما كانت في البدء. وهذه التوقعات الفلكية يؤيدها قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [القيامة: ٧ ـ ٩].

و﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ . . ﴾ [الزمر: ٦٧][1].

وأقول: إذا كانت الشمسُ «تُكَوَّرَ» يوم القيامة، بالتعبير القرآني، فتصيرُ عملاقاً أحمر»، بالتعبير الفلكي، وتبتلعُ الكواكبَ القريبة منها، وإذا كانت «الشمسُ تُدْني من الأرض، حتى تكونَ مِن الناس كمقدارِ ميل»، فإن لهبها سوف يكون أقربَ إلى القمر الذي لا شكّ أنها سوف تبتلعُه.

فانظر رحمك الله إلى قوله سبحانه: ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ و﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾، وإلى قول رسول الله (ص): تُدني الشمس من الناس حتى تكون منهم كمقدارِ ميل، وقول الفلكيين: تلتهمُ الشمسُ الكواكبَ القريبة منها حتىٰ إنّ لهبَها لَيَصِلُ الأرض، ومعها القمر.

وإذا كانت الأرض ترجف، وتُزلزَل، وتتفتّت، وسماؤُها ـ غلافُها الجويّ ـ ينفطر وينشقّ ويُكشط، وإذا كانت الكواكب السيارة تتناثر وتتفرق، والشمسُ تلتهمُ الكواكب السيارة حتى إنها لَتصل الأرض، فإن من المتوقع أن:

١ ـ ينشقّ القمر كذلك.

٢ ـ وأن يُجمَع الشمسُ والقمر فيصيران متصلَيْن ببعضهما.

ولا نرى في انشقاق القمر، وفي جمعه بالشمس، إلاّ مرحلتين متتاليتين، يوم القيامة، ما أسرعَ أن تعقب إحداهُما الأخرىٰ، والله تعالىٰ أعلمُ بمراده.

---

(١) «من علم الفلك القرآني ـ الثوابت العلمية في القرآن الكريم» (١٩٩١)، د. عدنان الشريف، دار العلم للملايين، ص ٩٥.

وأنظر مرةً أخرىٰ إلى قوله تعالى: ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ تَرَ أن الآية الكريمة تنطق باقتراب الشمس من القمر وليس العكس.

وفي أيِّ شيءٍ يختلفُ القمر عن الأرض، عند تكوير الشمس، أو «عملقتها»، يوم القيامة؟

١ ـ إن القمر هو أصغر من الأرض بكثير، إذ تبلغ كتلته $\frac{١}{٨١}$ من كتلة الأرض. وإذا كانت الأرض العظيمة ترجف وتتزلزل وتتفتّت بجبالها فإن القمر لا بد أنه يُصاب بالشيء نفسه، وبدرجةٍ أكبر، وفي وقتٍ مبكرٍّ أكثر من الأرض. إنه ينشقّ.

٢ ـ ليس للقمر من غلافٍ جويٍّ يحميه، فإذا كانت الشمس تلتهم الكواكب السيارة حتى إنها لتصل الأرض، وإذا كانت سماءُ الأرض، أو غلافها الجويّ يتشقق ثم هو يُكشَط من قبل أن يصل تأثير لهب الشمس المباشر إلى الأرض، فإن لهبَ الشمس المتعملقة، أو جحيمها بالأصح، سَرعان ما يمتد ليصل إلى القمر الذي ليس له من غلافٍ جويٍّ يحميه، وقبل أن يحصل ذلك للأرض. إنه جمعٌ للشمس والقمر.

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴾ [القيامة: ٧].

بَرِقَ وبَـرَقَ هما لغتان بمعنىً، أي تحيّر فَزَعاً وهَلَعاً ودهشةً من رؤية ما كان يكذِّب به، وأصلُه من بَرِقَ الرَّجُلُ أي نظر إلى البرق فدَهِش ولم يبصر، وقيل المفتوح من البريق، أي لمع من شدة شخوصه، أو تحيّرَ فلم يَطْرِف.

ونُضيفُ إلى هذه المعاني التي ذكرها العلماء المعنى اللغوي الأصلي: إنه الضوء، لابل هو البرق الشديد، يصيبُ العين.

وما هو مصدر انبعاث هذا البرق الشديد يومئذٍ؟

الجواب: وهل هناك غير الشمس في انفجارها العاتي مصدراً لهذا البرق الشديد الذي يأخذ بالابصار فتَشْخَصُ له أبصار الناس أجمعين؟

* * *

الباب السابع

يوم القيامة

صيحتان

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

تحدث، في يوم القيامة، صيحتان هما:

١ ـ صيحة الصعق، أو الموت.

٢ ـ وصيحة البعث، أو الخروج من القبور.

ولكن صيحة الصعق ليست أول حادثٍ في يوم القيامة، بل إن هناك قبلَها أموراً تُعتبر جزءاً من يوم القيامة. وآيةُ ذلك أنْ لو كانت القيامة تبتدىءُ بصيحة الصعق، وهي أن يَخِرَّ الخَلْقُ فجأةً إلى الأرض، موتىٰ، بسبب صعقةٍ ناريّةٍ يصحبها صوتٌ عظيم، لَما كان هناك من شدائدَ وعذابٍ مما قد جاءَ ذِكرُه في كتاب الله تعالى.

ما هي أحوالُ الناس التي تسبقُ الصعق؟

* الوِلدان تَشيب ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزَّمِل: ١٧].

* المَراضع يَذْهَلْن عمَّن أرضعن
* الحوامل يَضعن أحمالهن
* الناس كالسُّكارى

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحَجّ: ٢].

* عذابٌ أليم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشُّعراء: ٢٠١].

* الناس تَبْهَت ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠].

تبهتهم: تحيّرُهم وتدهشهم، تذعرهم.

* وتتحسَّر ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ..﴾ [الأنعام: ٣١].

والحسرة هي اللهفة والحزن والندامة على ما قد فات، وإنّها لَحسرةٌ وندامة خالدتان، إذ ليس بعدهما من مجالٍ لتوبةٍ ولا لخلاصٍ من العذاب.

ولماذا هي الحسرة؟

إنها بسبب التفريط في حق الله، والغفلة عنه، وعن أوامره، وإنه الكفرُ به.

ثم إنها تجيئهم بغتةً من غير توقّعٍ لها ولا استعداد، وعندها يكون قد قُضِي الأمر وانتهى كلُّ شيءٍ ولا رادَّ لقضاء الله.

* أين المَفَرّ؟ ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ . وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ . وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ . يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ٧ ـ ١٠].

كيف تَذْهَلُ المرضعةُ عن رضيعها، ومتى يكون ذلك؟

إن قوله تعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ يدل على أن ذلك يحدث ليس بعد صيحة البعث والنشور، إذ ليس عند ذاك من حَمْلٍ ولا رضاعة، بل هو يحدث قبل صيحة الصعق والموت.

إن ذهول المرضعة عما أرضعت لهو القِمّةُ في الشدّة التي ما بعدها شدّة. وإذا

ما أصابت الأيامُ الإنسانَ بنوائبها وأوصابها فبمن يستعين، وإلى من يَفْزَعُ مِنْ خَطْبٍ أو خوفٍ أو ضعفٍ حتى يأمن ويطمئنَّ ويقوّي به قلبَه لمجاهدة الخُطوب غيرُ أهلِه وذوي قُرباه؟

إن أقوىٰ رابطةٍ تربط بين الناس هي رابطة القرابة. لكن رابطةَ الوالدين بأبنائهم هي الأقوىٰ بينها جميعاً. وعاطفةُ الأمومةِ، وكما هو معلومٌ ومفهوم، أعلى درجةً من عاطفةِ الأبوّة، وعلاقةُ الأمّ بوليدها أقوىٰ من علاقة الأب به، ثم إن عاطفتها هي نحو ولدها أقوى من عاطفته هو نحوها، وهي أقوى ما تكون عندما يكون الولد رضيعاً.

فأنظُرْ إلى تلك الوشيجة بين الأم ورضيعها من وشيجةٍ لا تكاد تنفصم، وأنظر إلى الأم كيف هي تَذْهَلُ عن رضيعها يومَ القيامة، إنها الشِّدةُ والفزعُ بأعظمَ من ذلك كلِّه. وأنظرْ إلى أمِّ موسىٰ (ع)، وهو رضيع، كيف صار فؤادُها فارغاً إذ هي خُيِّلَ إليها أنها قد فقدته، ثم أنظُرْ إلى الأم يوم القيامة كيف يصيرُ فؤادُها فارغاً من كلِّ شيء، إذ هي تَذْهَلُ حتىٰ عن رضيعها نفسه.

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ لا تبقىٰ حاملٌ في ذلك اليوم العصيب إلاّ وأسقطَت حَملها من شِدّةِ الفزع.

﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾. أنظرْ إلى الإنسان، في الحياة الدنيا، إذا كان في قِمّةِ كَرْبِه وبلائه، وقد اختَرَمَتْه البَلِيّـةُ فجأةً وعلى حين غفلةٍ منه، كيف هو يكون كالسكران، وما هو بسكران. إنه يومئذٍ مذهولٌ من شدة الصدمة، لا يصدِّقُ أن المصيبة قد حَلّت وأحاطت به، فهو في حالٍ غيرِ ما قد كان عليه مما لم يكن يصدِّق أنّه سوف يحلُّ به، وهو يهذي من شدّة العذاب، وقد اختلط عليه الأمر ففقد رباطة جأشِه كله لأنّ واقعَهُ كُلَّهُ قد تغيّر أعظم تغيّرٍ بواحدةٍ كلمحٍ بالبصر.

﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ لا يحدث الشَّيْبُ عند الأصحّاء من الناس إلاّ مع تقدّم السن، وهي عمليةٌ بطيئةٌ جداً لا يُلْتَفَتُ معها إلى أيِّ تغيّرٍ بين اليوم واليوم أو

الشهر والشهر. وهناك حالةٌ واحدة فقط تحصل عند الأصحّاء سجّلَ فيها العلماء حدوث الشيب بين عشيّةٍ وضُحاها، وهي تحدث عند المحكومين بالإعدام ما بين صدور الحُكم وتنفيذه.

إن الذي يموت هو واحدٌ من اثنين، فهو إمّا أن يموتَ موتاً مفاجئاً، أي «زُؤاماً» من غيرِ استعدادٍ له وعلمٍ به، أو هو قد يكون مريضاً بمرضٍ غالباً ما يكونُ خطيراً، ولبعض الوقت. والأول منهما لا يصيبه قبل مصيبة الموت قلقٌ ولا خوف، لأن الأخيريْن لا يجيئان عند عدم توقّعِ حدوث الشيء المحزن بل مع توقّعِ حدوثه، وأما الثاني منهما فهو قد صار مستعداً للموت من خلالِ إحساسه بتزايد المرض والضعف اللذيْن يستشريان في جسمه بالتدريج، وبتناقص الصحة والقوة وبما ينتهي بنهاية الموت الطبيعية.

وأما المحكوم بالإعدام فهو في أتمّ صحته وقوته، كما أن مداركه تكون مُستَنْفَرَة نشيطة، ويقابل ذلك أسوأُ مِيتة: ميتة مفاجئة، سريعة، مخيفة، مؤلمة، فاضحة، هو لم يستعدّ لها، ويفقِدُ فيها المعدومُ حياته ويترك أهله بل والدنيا ومَسرّاتها جميعاً إلى ما لَم يَخْبُرْ من حِسابٍ وعذابٍ وعقاب.

إن أحداث يوم القيامة التي يشيب لها الوِلدان لهي شيءٌ عظيم.

النفخة الأولى في الصُّور
(الصيحة الواحدة، صيحة الصعق)

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ. .﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩].

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ . فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثّر: ٨ ـ ١٠].

قالوا في الصور: هو القَرْن، والنافخُ فيه إسرافيل (ع)، وصَعِقَ: خَرَّ ميتاً.

ومن معاني الصاعقة: ١ ـ الصاعقة المعروفة، وهي النار التي تنزل من السماء في رعدٍ شديد فيخرُّ الناسُ فيها ميتين أو مغشِيّاً عليهم.

٢ ـ صيحة العذاب، والصَعَق: شدّة الصوت، والصُّعاق: صوت الرعد.

٣ ـ العذاب المُهلِك.

هكذا نرى أن الصعق يحمل في معانيه: العذاب، والصوت العظيم، والنار تنزل من السماء، وما يشبه الصعقة الكهربائية التي تصعق الناس فيموتون.

وقولُه سبحانه: (صيحةً واحدة) يؤدي معنىٰ الصوت العظيم، وهو ما ينتج عن النفخ في الصور.

ونحن نرى أنّ معاني الصعق التي ذكرناها تنطبق كلها على واقع الحال يوم القيامة.

أيّةُ صيحةٍ تلك التي يخِرُّ لها أحياءُ الأرض مَيّتين؟ إنها صيحةٌ هائلةٌ عظيمةٌ مرعبة، تشمل المنظومة الشمسية كلها. وهي تتزامن مع انفجار الشمس الهائل عند احتضارها، أو «تكويرها»، كما قد رأينا.

كم هو طولُ يومِ القيامة، بالنسبة إلى زمننا نحن؟

إن اليوم، بالنسبة إلينا نحن سُكّان الأرض، هو الفترة التي تستغرقها الأرض لإكمال دورةٍ واحدة حول نفسها أمام الشمس، من شروقٍ لغروبٍ لشروق. فاليوم، يومُنا نحن، يرتبط بتواجدنا على الأرض في المنظومة الشمسية، فهو يومٌ نسبي أو

«يومٌ أرضي». أما اليوم على الكواكب السيارة الأخرى فهو يختلف من كوكبٍ لآخر، وكذلك هو يختلف من جُرْمٍ لجرم. وإذا نحن قلنا بأن طول اليوم نسبيٌ فليس معنى ذلك أن طوله مجازي أو خيالي، بل كلُّ ما هنالك أنّ اليوم، في ظروفٍ مكانية أو زمانية غيرِ ظروفنا نحن الذين نسكن الأرض، قد يكون طولهُ غير طول يومنا هذا.

وإن من المتوقع أن التغيّر الهائل الذي يصيب الأرض والمنظومة الشمسية يوم القيامة يرتبط بتغيّر دوران الأرض حول نفسها مما قد يكون سبباً في أن يطول ذلك اليوم، لا بل إنّ الأحوال والمقاييس في ذلك اليوم هي غيرُها عمّا هي عليه اليوم.

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ.
لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ.
مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ.
تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.
فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا.
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا.
وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا.
يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ.
وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ١ ـ ٩].

المعارج: المصاعد. قالوا: هي السماوات، تَعْرُجُ الملائكة فيها من سماءٍ إلى سماء، أي يصعدُ جبريل (ع) والملائكة.

وإنّ الروح هو جبريل (ع).

وقبل أن نبحث في طول اليوم المذكور في الآيات الكريمة نسأل: ما هو المقصود بذلك اليوم؟

إن ضمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ يعود إلى كلمة (اليوم)، أي أنه يومُ القيامة. ويؤكدُ ذلك قولهُ سبحانه بعد ذلك، ومن دون فاصل: ﴿وَنَرَىٰهُ

قَرِيبًا . يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ . . ﴾، ذلك لأن السماءَ لا تكون كالمُهْل، ولا تكون الجبالُ كالعِهْن إلا يومَ القيامة.

إنّ يومَ القيامة لهو يومٌ طويل، وطويل جداً، إذ هو يبلغ (٥٠) ألف سنةٍ من سِنِيِّنا نحن[1]، وهذه الفترة هي طول يوم القيامة، لكننا لا ندري إن كانت هي نفسُها مدّةَ العروج أم لا.

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾، أي إلى أمر الله تعالى ومُلكه، ذلك لأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن المكان والجسمية ولوازم الحدوث، إذ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ . . ﴾ [الشورى: ١١]، عُروجاً إلى حيث يأمرهم تعالى بذلك وهم له طائعون، إذ إنهم مكلَّفون، وكما هو عملهم دائماً، بتنفيذ أوامر الله تعالى. نحن لا نعرف سبب العروج إلا أنه يحدث في يوم القيامة، وأنه بأمر الله تعالى إلى حيث يشاء. إنه سَفَرٌ طويلٌ طويل، ونقطة الإنطلاق هي حيث كانت الأرض والمنظومة الشمسية، وهي تنتهي في الكون إلى حيث لا ندري، وأنّى لأحدٍ أن يدري، إلا عَلّامُ الغيوب الذي يرجع إليه كلُّ شيء.

والسماءُ لا تكون كالمُهْل ولا تكون الجبالُ كالعِهن إلاّ في بداية يوم القيامة، أي عند خراب المنظومة الشمسية وقبل خروج الناس من القبور. وإذا كان ذلك هو وقت عروج الروح والملائكة نفسُه فقد يكون قيام قيامة المنظومة الشمسية سبباً لتركهم إيّاها.

وإنّ هناك لأحداثاً جِساماً عديدة جداً يوم القيامة، من الفزع وعذاب ما قبل الصعق، ثم صيحة الصعق نفسها، ثم بقاء الناس أمواتاً، ثم بعثهم من جديد، ثم

---

(١) إذا حَسَبْنا المسافة التي يقطعُها الضوء، وهو سرعتُه أكبرُ سرعةٍ نعرفها في الكون، في هذه الفترة (٥٠ ألف سنة)، فإنها تساوي ½ قطر مجرّة درب التبّانة، إذ يبلغ قطرُها، باعتبارها «قرصاً» عظيماً (١٠٠ ٠٠٠) سنة ضوئية، علماً بأن الشمس لا تقع في طرف المجرّة الخارجي، ولا في مركزها، وهي أقربُ إلى الخارج منها إلى الداخل. ما هي العلاقة بين هذين الرقمين، وما هي أسرارها؟ إننا نقف هنا خاشعين مردّدين قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

حسابهم، يحدث ذلك كلُّه في يوم القيامة. وإنّ يوماً تحدث فيه كل هذه الأحداث لا بد أن يستغرق وقتاً طويلاً، ولا يُتَصَوَّر أن تحدث كلها في يومٍ واحد من أيّامنا نحن ولقد بيّن الحقُّ سبحانه أنّ هذا اليوم يبلغ طوله (٥٠) ألف سنة من أيّامنا. والأحداث التي قد ذكرناها ممّا قد صوّره لنا تعالى في كتابه العزيز صورٌ سريعة مختلفة لأحداثٍ عديدة يلحقُ بعضُها بعضاً وهي لا تحدث كُلُّها في الوقت نفسه.

اليوم في كتاب الله

١ ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

٢ ـ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

٣ ـ ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

معاني كلمة «اليوم»:

١ ـ قد تجيء بمعنى الزمن أو الحِقبة.

٢ ـ أو هي قد تجيء بمعنى النهار.

٣ ـ أو مقدار الزمن الذي يحتاج إليه الكوكب السيار لإكمال دورةٍ واحدة حول محوره أمام الشمس. فاليوم يبلغ (٢٤) ساعة، ذلك في حسابنا نحن الذين على الأرض، وكذلك هو يومُ المِرِّيخ. أما في المشتري، وزحل، وأورانوس، فيبلغ (١٠) ساعات، وهو في نبتون (١٦) ساعة، أما عُطارِد فإنّ يومه يبلغ (٨٨) يوماً من أيّامنا، ويبلغ طول يوم الزُّهَرَة (٢٤٣) يوماً.

وتدُلّ الآيات الكريمة على أن اليوم قد يكون طولهُ ألفَ سنةٍ، أو هو قد يبلغ (٥٠) ألف سنةٍ مما نَعُدّ. وإن يوماً من أيامنا نحن، مَقيساً بالنسبة إلى ذلك اليوم الذي يبلغ طولُه ألفَ سنة، يمرّ مرّ البرق، فهو يعادلُ عندئذٍ أقلَّ من $\frac{1}{4}$ الثانية من زمننا نحن.

حقاً إنّ قياس زمننا لايكاد يُعادِل شيئاً بالنسبة إلى قياس. الزمن في الكون مثلما أن أرضنا ومنظومتنا الشمسية لا تكاد أن تكون شيئاً بالنسبة إلى الكون العظيم الذي خلقه تعالى.

ولا أدَلَّ على مبدإ «النسبية» في الكون من هذه الآيات التي جاءت في كتاب الله تعالى قبل أكثر من (١٤) قرناً. فأنْ يكونَ اليومُ كألفِ سنةٍ أو خمسينَ ألفَ سنةٍ مما نعدّ فذلك يدلُّ على:

١ ـ النسبية في الكون الذي خلق تعالى، أي أن كلَّ شيءٍ يُقاسُ بحسبِ مكانه وزمانه.

٢ ـ وعلى الفارق العظيم ما بين قياساتنا، نحن الذين على الأرض، وبين القياسات الكونية الشاسعة في مُلكِ الله الواسع.

إنّ ما قد جاء في كتاب الله قبل (١٤) قرناً لم يجرؤ على أن يفكّر أو ينطق به أحدٌ من قبل أن يجيء آينشتاين، في آخرِ الأمر، بالفكرة نفسها.

.. وفي «العهد القديم»

ولقد جاء في «العهد القديم» أن الله تعالى قد خلق العالَم في ستّة أيام، بالمعنى الحرفيّ ليومنا الأرضي الذي نعرفه. إنّ الشواهد والأدلة التي حصل عليها العلماء في الغرب تدلّ على أنّ المنظومة الشمسية، وحدها، قد خُلقت في «أطوارٍ» أو أحقابٍ متطاولة، لكنّ كتابَ الله تعالىٰ قد بيّنَ حقيقة الأمر كلّه: إنّ الزمن هو شيءٌ نسبي، وإنّ اليوم في مكانٍ بذاته ليس هو اليوم في مكانٍ آخر. فاليوم، في التعبير القرآني، هو إشارةٌ إلى «مراحلَ»، أو «أطوارٍ»، أو «حِقَبٍ» **للخَلْق ممّا قد يستغرقُ أزماناً متطاولة جداً، وليس هو إشارةً إلى أيامنا التي تعارفنا عليها نحن أهلُ الأرض**[1].

---

(١) إن هذا التفسير لِـ«اليوم» في كتاب الله تعالى ليس جديداً، بل هو قديم. قال جمهورُ المفسرين: (في ستة أيام) معناها في ستة أزمنة لا يعلم حقيقة مقدارها سواه تعالى، وقال أبو السعود: إن المقصود منها: في ست نوبات، أي ست وقائع وحوادث في ستة أزمنة لا يعلمها سواه.

إن العالِم الذي يعلم، من كتاب الله تعالى، أن اليوم هو شيءٌ نسبيّ، وأنه قد يصل الآلاف العديدة من السنين لا يَصْعُبُ عليه أن يفهم قول الحقِّ سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [قَ: ٣٨]، وبما يتوافق مع معطيات العلم الحديث، أما دارسُ «العهد القديم» الذي يقرأ، ويؤكِّد له، بأن الأرض قد خُلقَت في (٦) أيام من أيامنا نحن فإنّه لا يمكنه أن يوَفِّقَ بين ذلك وبين ما يعرفُه من العلم الحديث، فيتسرّبُ الشَّكُ إليه في صحّة الدين، أيِّ دين، ثم هو ما أسهلَ أن يُدير ظهره له. ولقد يفسِّرُ لنا مثلُ هذا ابتعادَ العُلماء في الغرب عن الدين وعداوتهم له.

النفخةُ الثانيةُ في الصُّور

(صيحة البعث، صيحة الخروج، الصّاخّة، القارعة، الزَّجرة الواحدة)

نلاحظ أن هذه المسمّيات العديدة ليوم القيامة، وإضافةً إلى مَعانٍ عديدةٍ لها، تشتركُ كلها في دلالتها على الصوت العظيم الذي يَعُمّ أرجاء المنظومة الشمسية، والذي لا سببَ واضحاً له إلاّ أنه يترافق مع احتضار الشمس وانفجارها ووصول لهبها إلى الأرض[1]، أي «تكويرها».

* **الصيحة:**

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٥٣]، أي للحساب، بدليل قوله تعالى أنهم ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ أي للسؤال والحساب.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [قَ: ٤٢].

* **النفخ في الصُّور:**

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

---

(١) إن «تعملق» الشمس ووصول لهبها إلى الأرض هو سببٌ لوصول الصوت الصادر عن انفجارها يومئذٍ، إذ هو يصيرُ وَسَطاً لانتقال الصوت.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: ٥١].

الأجداث: القبور.

ينسلون: يُسرعون.

﴿ .. ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧].

داخرين: أذلاّء صاغرين.

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ قد دَلَّ على أن المقصود بهذه الآية هو صيحة البعث ليس غيرُ.

﴿ .. وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف: ٩٩].

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ [النبأ: ١٨].

إنّ أحوال الناس يوم القيامة هي انعكاسٌ لأحوال ما يحيط بهم، فلنبحث أولاً في أحوال الأرض وما حولها، ثم نبحث في أحوال الناس.

* **الخُروج:**

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ.
خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ.
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر: ٦ ـ ٨].

النُّكُر: الشديد الفظيع.

مُهطِعين: مُسرعين.

الداعي: إسرافيل (ع).

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣].

إلى نُصُبٍ يُوفِضُون: إلى أصنامٍ يُسرِعون.

* الناقور:

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ .
فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ .
عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المُدَّثِّر: ٨ ـ ١٠].

نُقِرَ: أي نُفِخَ في الصُّورِ النفخةُ الثانية، من النَّقْر أي التصويت، وأصلُه القَـرْع الذي هو سببُه.

وإذا كانت الآية الكريمة تدلّ على أحوال الكافرين العسيرة يومذاك فينتج من ذلك أن المؤمنين الصالحين يومئذٍ هم في حالٍ غيرِ ذاك الحال.

* زجرةٌ واحدة:

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الصّافّات: ١٩].

زجرة: صيحة، وهي النفخة الثانية، من قولهم زَجَرَ البعيرَ إذا صاح عليه، وسُمِّيتْ زجرةً لأنها طردٌ بصوتٍ، فإذا هم أحياءٌ كما كانوا في الحياة الدنيا.

* الصّاخّة:

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ .
يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ .
وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ .
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ .
لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عَبَسَ: ٣٣ ـ ٣٧].

الصّاخّة: **الداهية العظيمة**، مِن صَخَّ أصاخَ: استمعَ، والمرادُ بها نفخةُ البعث لأن الناس يَصْخُون لها أي يستمعون. وأصلُ الصَّخّ **الصَّكُّ الشديد**، ونلاحظ هنا مَعْنَيَيْن اثنين لكلمة الصاخّة ينطبقان كلاهُما على واقع الحال.

* القارعة:

﴿ٱلْقَارِعَةُ.
مَا ٱلْقَارِعَةُ.
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ.
يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ١ ـ ٤].

القارعة: مِن القَرْع، وهو الضربُ بشدةٍ بحيث يحصل منه صوتٌ شديد.

قالوا: سُمِّيَت القيامةُ بالقارعة لأنها تَقرَعُ القلوبَ بأهوالها. تقولُ العربُ قَرَعَتْهُم القارعةُ إذا وقعَ بهم أمرٌ عظيم، وأقول إن فوق المعنى الأخير يُضاف معنى التصويت الشديد، وهي من المعجزات القرآنية في اجتماع المعاني العديدة والمختلفة لِلَّفْظِ الواحد في دلالته على واقع الحال، وهي مِمّا قد اُعتدنا أن نراه في كتاب الله تعالى، حيث نجدُ أن الكلمة الواحدة تنطق بمعانٍ عديدة ينطبق كلّها أو جُلُّها على واقع الحال.

* تَشَقُّقُ الأرض عن الناس:

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [قٓ: ٤٤].

* أحوالٌ أخرى للناس عند الحشر:

﴿.. إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ.
مُهْطِعِينَ
مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ
لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ
وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢ و٤٣].

شَخَصَ بَصَرَهُ: فتح عينيه ولم يَطْرِف متأمِّلاً أو منزعجاً.

مُهْطِعين: مُسرعين، تلبيةً لدعوة الداعي.

مُقْنِعِي رؤوسِهم: رافعين رؤوسهم إلى السماء، لا يرىٰ واحدُهم موطىءَ قدمه من الذهول والدهشة.

لا يرتَدُّ إليهم طَرْفُهم: لا ترجع إليهم أجفانُهم التي يكون فيها الطَرْف، أي التحريك.

أفئدتُهم هواء: قال الشيخ مخلوف: قلوبهم فارغة خالية عن الفهم لا تَعِي شيئاً ولا تعقِل من شدّة الخوف والدهشة. وأقول إن قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ هو مِثْلُ قوله في أمِّ موسىٰ (ع): ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، أي يائساً لا أمل له.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ
وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ
فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

لا عِوَجَ له: لا يَعْوَجُّ له مدعوّ ولا يَزيغُ عنده.

الكرةُ الأرضية والسماوات يوم القيامة

١ ـ ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

٢ ـ ﴿ . . وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ . . ﴾ [الزمر: ٦٧].

قال الشيخ حسنين مخلوف: القبضة: مجازٌ عن المِلْك أو التصرف.

واليمين: مجازٌ عن القدرة التامّة.

قلنا إن الأرض والسماوات السبع، أي الكواكب السيارة في المنظومة الشمسية، تُبَدَّلُ عند قيام الساعة بأخرى جديدة. ويؤكد ما ذهبنا إليه أن الآية الأولى تتحدث على يوم القيامة وكذلك هي الآية الثانية. ولكن الثانية تُخبِّرُنا بأن السماوات، أي الكواكب السيارة هنا، تُطوىٰ أي تُضَمّ إلى بعضها البعض، وكذلك الأرض[1]، وهكذا فإن الأرض ومعها الكواكب السيارة لن تعود، بعد يوم القيامة، إلى حالتها الأولى، بل هي تُضَمّ إلى بعضها البعض ويجتمعُ فُتاتها المتناثر، أي أنها

(١) أي أن مصير الأرض وبقية الكواكب السيارة هو واحد، وهو دليلٌ يضاف إلى بقية الأدلة على أن المقصود بكلمة السماوات، مذكورةً بعد كلمة الأرض في كتاب الله، تعني الكواكب السيارة في المنظومة الشمسية. ونلاحظ هنا الكناية في التعبير القرآني، وإذا كانت الأرض في «قبضة» الله تعالى يوم القيامة، أي في مِلكه وسيطرته، فكذلك هو «الطيُّ باليمين»، لأن الطيّ لا يكون إلا باليد، ويؤكد ذلك قوله تعالى: (بيمينه).

تعودُ سديماً مثلما كانت في أوّلِ خَلْقِها، وإنّ ذلك ليؤيد بأن الأرض والسماوات يومئذٍ هي أرضٌ وسماواتٌ جديدة.

* * *

* ١ - ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ . .﴾ [الزمر: ٦٧].

٢ - ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ .
خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ
إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ .
۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ
خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ
عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٨].

غير مجذوذ: مستمرّ غير منقطع.

* تدلّ الآية الأولى على قيام قيامة الأرض و السماوات.

* وتدلّ الآية الثانية على أن الجنة والنار وهما، وكما قد رأينا، موجودتان يوم القيامة، بل وقبله، تدومان ما دامت السماوات والأرض.

* نتيجة (١): السماوات والأرض بعد يوم القيامة هما غيرُ السماوات والأرض التي كانت قبلها، وليس المقصود بذلك أنها قد تبدّلت صفاتها، إذ إن ذلك واقعٌ حتماً وبالبداهة، بل المقصود أنها تُبَدَّل بغيرها جديدة.

* نتيجة (٢): «السموات والأرض» ليستا الكونَ كلّه.

* نتيجة (٣): إن القيامة لا تشمل الكون كلّه، بل تشمل السماوات والأرض، أي منظومتنا الشمسية فقط.

* * *

* ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ .
تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦ و ٧].

رَدِفَهُ: تَبِعَهُ.

قال الشيخ مخلوف: الراجفة هي النفخةُ الأولى. وسُمّيت راجفة من الرجف وهو الاضطراب الشديد. تتبعُها الرادفة التي هي النفخة الثانية التي تردف الأولى، وسُمّيت رادفة لمجيئها بعد الأولى.

لكن الشيخ مغنية قال: الراجفة هي الأرض، بدليل قوله تعالى في سورة (المُزَّمّل)، الآية ١٤ ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ﴾، وأما الرادفة فهي السماء بما فيها تَرْدُفُ الأرضَ التي تتبعها خراباً ودمارًا.

ونحن نرجّح التفسير الثاني لأنه يستند إلى نصّ القرآن الكريم.

الباب الثامن

أحوالُ الكرة الأرضية

١ - في البر

٢ - في البحر

٣ - في الجو

١ ـ أحوال اليابسة يوم القيامة

● الزلزلة:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا .
وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١و٢].

تشمل زلزلةُ يوم القيامة الكرة الأرضية كلَّها، ومثلُ هذه الزلزلة العامّة التي وصفها الحقُّ سبحانه بأنها شيءٌ عظيم أين منها ما نعرفه من زلازل.

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ .
وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ .
وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣ ـ ٥].

● دَكُّ الأرض وتسويتُها:

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١].

﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقّة: ١٤].

الدكّ:

١ ـ الهدم والكسر والدقّ، والتكرار إشارةٌ إلى التتابع، أي دكّاً بعد دكّ. دُكَّت الأرضُ دكّاً متتابعاً حتى انكسر وذهب كل ما على وجهها من جبالٍ وأبنية.

٢ ـ أو هو يعني أن الأرض سُوِّيت ولم يَبْقَ على وجهها شيءٌ حتى صارت ملساء لا ارتفاع فيها، من الدَكّ بمعنىٰ حَطِّ المرتفع من الأرض بالبسط والتسوية.

ونجد هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿. . فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا. . ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

● الرَّجّ والرَّجفة:

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤].

رُجَّت: هُزّت وتحركت.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ. . ﴾ [المُزَّمِّل: ١٤].

قالوا بأن الرجّةَ والرجفة هما الزلزال نفسه.

وأقول بل إنّ للرجفة معنىً آخر. فَـأَنْ تهتزَّ الأرضُ كلُّها هو أن تتحرك في الفضاء جيئةً وذهاباً، وهو أمرٌ ينتج عن اضطراب ميزان الجاذبية بين الشمس وبين الأرض ذلك الاضطراب العظيم الذي يجعل الكواكب السيارة تنتثر في الفضاء.

ونلاحظ هنا التشابه بين حروف كلمتي «رجّ» و«رجف».

● الجبال * نَسفُها:

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المُرْسَلات: ١٠].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا.
فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا.
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

ينسفها: يقلعها من أصلها ويسوّيها بالأرض.

قاعاً صفصفاً: أرضاً لا نبات فيها ولا بناء، مستوية ملساء.

عِوَجاً: مكاناً منخفِضاً.

أَمْتاً: مكاناً مرتفعاً.

* سيرُها:

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠].

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً . . ﴾ [الكهف: ٤٧].

تصير الجبال بعد اقتلاعها وتفتّتها ليس أكثر من سراب.

الأرض بارزة: بادية للعيان ظاهرة، لا حجر ولا شجر ولا بناء فيها يحجب الأبصار.

* تفتتها، وانتشارها، وصيرورتها كالصوف المنفوش، بل كالهباء المنثور:

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا.

فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥ و٦].

أي فُتِّـتَتْ فصارت غباراً منثورًا.

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩].

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

العهن: الصوف.

﴿ . . وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ١٤].

كثيباً: رملاً مجتمعاً بعد أن كانت أحجاراً صلبة.

مَهيلاً: متناثراً بعد اجتماعه، والمَهِيل الذي يُحَرَّكُ أسفلُه فينهال عليه من أعلاه ويتتابع.

والذي قد ذكرناه حوادثُ عديدة يعقِب بعضُها بعضاً. قالوا: يَقْتَلِعُ الحقُّ سبحانه الجبالَ من أصولها ثم يجعلُها كالرمل ثم يصيِّـرُها كالعهن ثم تذروها الرياح ثم يُصَيِّـرُها كالهباء.

وإذا كانت الجبال تُـدَكُّ وتُفتّتُ يوم القيامة فإن دكّ ما قد بناه الإنسان من مبانٍ

وسدودٍ وجسور، إلخ، يصير شيئاً حتمياً، وذِكرُه تعالىٰ لدكّ الجبال يُغني عن ذِكر ما هو أصغرُ منها وأوهى.

* إن الزلازل، وحدها، لا تَدُكّ الجبال وغيرها ممّا هو على الأرض فتدُقُّها وتجعلُها كلها غباراً ناعماً، بل لا بد من أنَّ هناك سبباً آخر لذلك، لا بل إن كلمة (الدكّ) نفسَها تُشير إلى وجود عاملٍ خارجي يؤثر في سطح الأرض من خارجها، وهو ما يمكن أن نجد تفسيره في النفخ بالصور الذي تصفه كلمات الصعق، والصيحة، والناقور، والقارعة، والصاخّة، والزجرة. إنه صوتٌ عظيمٌ جداً يصعق الخلائق كلها. ويمكن للصوت أن يفعل كلَّ ذلك وأكثرَ منه: إنه يمكنه أن يفتّت الأحجار. وتفتيت الحَصىٰ في بطن الإنسان من طريق توجيه الأمواج فوق الصوتية مثالٌ على ما نقول، أو لعلّها موجةٌ انفجارية، أو موجاتٌ تضاغطية صاعقة حارقة مصحوبة بصوتٍ عظيم تضربُ وجه الأرض.

* الأرض تصير صعيداً جُرُزًا:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.
وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: ٧ و٨].

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا ﴾ أي من النبات والأشجار (صعيداً جُرُزاً) أي صعيداً لا نبت فيها. أي أن الأرض تصير ماحِلَة لا نبت فيها ولا شجر، وذلك لأنها تحترق بحرارة الشمس.

● الحيوانات:

*العِشار ـ ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ [التكوير: ٤].

العشار: جمعُ عَشَراء، وهي الناقة التي أتىٰ على حَملها عشرة أشهر.
عُطِّلَت: تُركت وأهملت.

* الوحوش ـ ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥].

تَفِرُّ مذعورةً عند خراب الأرض وتموت خوفاً.

البحار يوم القيامة

* السَّجْر :

﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ [الطُّور:٦].

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦].

● التفجير :

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٣].

المسجور: المُوقَدُ ناراً، من سَجَر التَّنورَ أحماه.

قال تعالى: ﴿ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٢]، أي يُحرقون.

أي أن البحار والمحيطات تغلي وتفور وتصير كلها حمماً.

فُجِّرَتْ: من الفَجْر، وهو شَقُّ الشيءِ شقّاً واسعاً.

أي أن البحار تتفجّر وترتفع أمواجها العالية وهي تفور.

تعليق: إذا كانت البحار تغلي يوم القيامة من شدّة الحرارة فإنّ اليابسة لا بد أنها سوف تكون، هي الأخرى، حارّة جداً، ولا بدّ أن المياه سوف تتبخر من على سطحها وتختفي وتَغور. وقد يكون ذلك هو المقصود من قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [المُلك: ٣٠]، لأن الماء إذا تبخّر من على سطح الأرض صار بعيداً غائراً في جوفها.

غوراً: غائِراً بعيداً في جوف الأرض.

المَعِينُ من الماء: الظاهر الذي تراه العين يجري على وجه الأرض.

٣ ـ غلافُ الأرض الجويِّ (السماء) يوم القيامة

قلنا إن لكلمة (السماء)، في القرآن الكريم، معاني عديدة، و(السماء) هنا هي غلاف الأرض الجويّ، أو جوّ الأرض.

* مَوْرُ السماء:

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطُّور: ٩].

المَوْر: الحركة بذهابٍ وإياب، والتموّج والتّكَفُّؤ (المَيْد والتمايل).

قالوا: تضطرب السماء وتدور كالرَّحىٰ وتتداخلُ أجزاؤها وتتكَفَّأ بأهلها.

تعليق: اُنظُر إلى جوِّ الأرض، أي سمائها، إذ هي تمور، ثم تتشقق، وهي تجيء بالغَمام ثم تصير يحمرة الورد، وهي تصير أبواباً ثم إذا هي تُكشَط. إنها مراحلُ عديدة يعقبُ بعضُها بعضاً، في يوم القيامة الطويل في واقعه، والطويل في شدّته التي تبدو وكأنها لا نهاية لها ولا انفراج.

ومثلما تتحدث الآيات الكريمة على هذه الأحداث، أو المراحل، المتتالية، فكذلك هو حديث بقية الآيات على حوادث الساعة.

* انفطارُ السماء، انشقاقها، انفراجها:

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

الغَمام: جمعُ غَمامَة، وهي السحابة. و(الباء) بمعنىٰ (عن)، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾، أي تتشقق السماء فيبدو الغمام الذي يغشىٰ الأرض، والقرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً.

أقول: لا أراها سُحُباً تحمل الماء، بل هي الدخان والغازات التي تَلُفُّ الأرض.

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ .

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ و٢].

أَذِنَت لربها: انقادت له وأذعنت.

وحُقَّت: حُقَّ لها أن تسمع وتطيع.

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

* السماء بحمرة الورد:

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

وردةً: وردية اللون، أي حمراء.

كالدِّهان: كدهن الزيت الذائب على النار بحمرة الورد، أو مُحْمَرّةً كالدِّهان أي الأديم الأحمر، أو كالجِّلد الأحمر.

أي تصير السماء عند تصدّعها بحمرة الورد.

وإذا ٱنشقّت السماءُ يومَ القيامة، وصارت واهية، كما سنرىٰ بعد قليل، فإن الفضاء يصيرُ للناظر إليه أحمر اللون. ولِمَ؟ إنه ما بعدَ السماء، أي ما بعد جوِّ الأرض. إنها الشمس، أو «العملاق الأحمر»، كما سوف تكون حينئذٍ.

* السماء واهية:

﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقّة: ١٦].

واهية: ضعيفة.

يصير جوُّ الأرض واهياً، فيتخلخل الهواء الجوي تخلخلاً كبيراً، أي أن الأرض تفقد غلافها الجوي الحامي لها والذي هو السقف المنيع الحافظ لها والذي أشار المولىٰ سبحانه إليه بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا . . ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ [المُرسَلات: ٩].

أي شُقَّت وفُتحت.

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ [النبأ: ١٩].

أي صارت شقوقُها لِسِعَتِها كالأبواب.

* السَّماء كالمُهْل:

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [المَعارج: ٨].

قال مغنية: المُهْل هو الزيت العكر أو المعدن الذائب.

وقال مخلوف: كدُرْدِيِّ الزيت، وهو ما يتبقىٰ في أسفله.

* الكَشْط:

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ [التكوير: ١١].

أي قُلِعَت وأُزيلت فلم تبقَ سماءٌ تغطّي ما تحتها كما يُكْشَطُ الإهاب، أي الجلد، عن الذبيحة. والكشط قَلْعٌ عن شدّة التصاق. يُقال: كشطتُ البعيرَ أي نزعتُ جلده عنه.

فكشطُ السماء هو كشطٌ لِغلاف الأرض الجويّ، ويُشير معنى «القلع» إلى قوةٍ خارجية عن الأرض تتغلّب على قوة «الالتصاق» التي هي جاذبية الأرض للغلاف الجوي. إنّ الأرض لم تَعُدْ قادرةً على حِفظ غلافها الجويّ المحيط بها[1].

* الغَشْو:

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ [الغاشية: ١].

الغاشية في اللغة: الغِطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ .. ﴾ [لقمان: ٣٢]، أي غمرهم الموجُ وغطّاهم.

قالوا: والمراد بالغاشية هنا القيامة لأنها تغشىٰ الناس بشدائدها وتغمرهم

(١) انظر ص ١٠٦ و ١٠٧.

بأهوالها. وأقول: وهي تدلّ، فوق ذلك، على أنها **تغطّي الناس وتجلّلُهم**، وهو ما يحدث مثلما رأيْنا بسبب الغَمام، والدخان، والغبار، فهذان معنيان اثنان للغاشية ينطبق كلاهما على واقع الحال.

* ظُلَل الغَمام مرةً أخرى:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ . .﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ . . ﴾ [البقرة: ٢١٠].

ينظرون: ينتظرون.

يأتِيَهم الله: أي أمرُه وبأسُه.

الظُّلَّة: ما يُظِلُّك.

قالوا: ولا يكون الغَمامُ ظُلَّةً إلا حيث يكون متراكباً، وقيل: إنَّ (في) بمعنى الباء، أي يأتيهم الله تعالى بظُلَلٍ من الغَمام، أي بالعذاب الذي يأتيهم في الغَمام مع الملائكة.

وإذا أشار الحقُّ تبارك وتعالى إلى ما يُرافق انشقاق السماء من تغيّرٍ في لونها، تارةً بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾، وتارةً أخرى بقوله: ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ و﴿ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾، فإننا نلاحظ ما يلي:

١ ـ تتشقَّقُ السماءُ بالغَمام، أو السُّحُبِ المتراكبِ بعضُها فوق بعض، في الآية الأولى، بينما أن السماء في الحالة الثانية حمراء كالورد، أو كالمهل، أو كالدِّهان.

٢ ـ يُشير قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ إلى بداية تشققها، بينما يشير وصفه لها بالاحمرار إلى مرحلةٍ لاحقة.

ما هذا؟

إنّه كدُهنِ الزيت العكر الذائب على النار، أو كالمعدِن الذائب، ثم إنّه أحمرُ بيِّنُ الحُمرة.

والسبب؟

نحنُ لا نرى فيه إلاّ غازاتِ الشمس المتفجّرة ثم لهيبَها الساطع المقترب من الأرض.

الباب التاسع

الجَنَّةُ والنّار

نعيمُ الجَنَّة هو مِمّا لا نعلم

لئن جاء وصفُ جنّةِ الخُلْد بأنّها «أرضٌ» فإنها ليست من أرضنا التي نعرفها في شيءٍ اللهم إلاّ من حيث كونها «برّاً»، أو «يابسة»، إذ إنّنا لا نعرف عنها شيئاً، فوق ما قد علمناه من كتاب الله تعالى وحديث رسوله الكريم، إلاّ ما قد يتبادر إلى أذهاننا من خلال معرفتنا بأرضنا نحن. وهي تجري من تحتها الأنهار، ولقد وصفها الحق سبحانه وتعالى كذلك لأن الأنهارَ، أيّةَ أنهار، لا بدّ أن يكون مستواها تحت سطح اليابسة، أيّةِ يابسة. لكننا لا بدّ أن نُضيف أنَّ وصفَهُ سبحانَهُ لأنهار الجنة كذلك قد يحملُ من المعاني ما لا نعلمُه أو نُدركُهُ من أحوالها.

***

* ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ .

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ .

مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ .

ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ .

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٥].

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السَّجدة: ١٧].

* **وقال رسول الله (ص)، وبالمعنى نفسه:**

فيها ما لا عينٌ رَأَتْ
ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ
ولا خَطَرَ على قلبِ بشر.

* * *

* **إزلافُها.**

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠].

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [قَ: ٣١].

﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٣].

أُزلفتْ: قُرِّبَتْ.

يُقرِّبُ تعالى الجنةَ يومَ القيامة من عباده المتّقين، وفي هذه الآيات إشارةٌ إلى أنّ:

١ ـ الجنة كانت موجودة ولا تزال في وقتنا الحاضر، وهي حقيقةٌ نراها في ما ذكره تعالى عن رسوله الكريم (ص) عندما رأى جبريلاً (ع) عند عُروجه في السماء:

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ.
عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ.
عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥].

نقل الشيخ مغنيّة عن «جوامع الكَلِم» أنّ جنَّـةَ المأوى هي جنّـةُ الخُلْد التي جعلها سبحانه ثواباً للمتّقين.

٢ ـ الجَنَّـة تُقرَّبُ إلى المتّقين يوم القيامة.

ولقـد رأى رسـول الله (ص)، فـي معـراجـه الجنـة والنـار، وتـواتـرت بـذلـك الأحاديث.

* جنة المأوى:

أقول إنّ ما نقله الشيخ مغنيّة تشهدُ له الآياتُ الآتية:

١ ـ الآيات ١٣ ـ ١٥ من سورة النجم.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدة: ١٩] أي أنّ جنّة المأوى التي رأى فيها رسولُ الله (ص) جبريلاً (ع) هي نفسُها الجنةُ التي يأوي إليها المتّقون يومَ القيامة.

نتيجة:

إنّ هذه الحقيقة، حقيقة أنّ الجنّـةَ موجودةٌ الآن كما في يوم القيامة، تَعْضُدُ ما ذهبنا إليه من أنّ القيامة لا تشمل الكون كله، إذ لو كان الأمرُ كذلك إذاً لأصابت الجنّةَ أيضاً، وهو أمرٌ غيرُ معقول، فهي تُصيب، وكما أثبتنا، المنظومة الشمسية وحدها.

إن الجنة موجودةٌ في مكانٍ ما، من ملكوت الله، لا نعرفه.

ولقد أُسْرِيَ برسول الله (ص) من المسجد الحرام في مكّة إلى المسجد الأقصى في بيت المَقْدِس، ثم هو عُرِجَ به في السماء (الفضاء) إلى حيثُ الجنةُ وحيث النار، إذ هما توجدان في مكانين من الكون لا نعلمهما.

وٱنْظُـرْ إلـى هـذا السِّـرِ اللطيـف: لقـد أُسـرِيَ وعُـرِجَ بـالنبـيّ (ص) علـى ظهـر «البُراق»، وهو «دابّة»، والدابة هي كل ما دَبَّ على سطح الأرض، لكنها دابةٌ لا كالدواب. فالبُراق، بصفاته التي قد عرفناها، من سرعةٍ كسرعة البرق، وطيرانٍ في الفضاء، لا يحملُ من صفات الدابة التي نعرفها إلا الاسم. فٱنظُرْ كيف أن البُراق الذي حَملَ رسولَ الله (ص) قد أخذ اسمه من (البرق)، وهو الضوء الذي هو أكثرُ شيءٍ، نعرفه، سُرعةً في الكون، فكأنّ ٱسم «البُراق» قد دَلَّ على أن سرعته كسرعة البرق، أو الضوء، والله تعالى أعلمُ بسرعته.

* عَرْضُ الجنة:

١ - ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ . . ﴾ [الحديد: ٢١].

٢ - ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ . . ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

الجنّة في الآية الأولى عَرْضُها كعرض السماء والأرض.

بينما هي في الآية الثانية عَرْضُها السماواتُ والأرض.

فما تفسيرُ ما قد يُحْسَبُ مِنْ تناقضٍ بين الآيتين الكريمتين؟

قال القرطبيّ: اختلف العلماءُ في تأويله، فقال ابن عباس: تُقْرَنُ السماواتُ والأرض بعضُها إلى بعضٍ كما تُبسَطُ الثيابُ ويوصَلُ بعضُها ببعضٍ، فذلك عرض الجنة.

ولا تناقض، في حقيقة الأمر، بين الآيتين.

فـ«السماء» في قوله تعالى: ﴿ كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ مقصودٌ بها المنظومة الشمسية[1].

و«السماوات» في قوله سبحانه: ﴿ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ مقصودٌ بها الشيءُ نفسه، أي الكواكب السيارة + الأرض، تدور حول الشمس، أي المنظومة الشمسية أيضاً.

* **من أسماء الجنة وصفاتها:**

جنة المأوىٰ.

جنة الخُلد.

جنات النعيم.

جنات عَدْن.

---

(١) انظر كتابنا «أسرار الكون في القرآن».

جنات الفِرْدَوْس.
جنات تجري من تحتها الأنهار.

*** الضياء والظِّلال في الجنة:**

أمّا نوع الضوء، أو النور، في الجنة، ومصدره، فهو مما لا نعلمه. ولقد ذكر القرآن الكريم الظِّلال في الجنة:

﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٣٠].

﴿ . . لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿ ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا . . ﴾ [الرعد: ٣٥].

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٣٥].

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المُرْسَلات: ٤١].

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٣ و١٤].

زمهريراً: برداً مُفرطاً.

نحن نعلم بأنه لولا الشمس ما كان للأجسام من ظِلٍّ بحكم البديهة، فلا بدّ من أن هناك مصدراً للضوء في الجنة كالشمس أو غير الشمس.

*** ولكن ما هي صفة الظِّلال في الجنة؟**

وما هو معنى الـ (ممدود)؟

انظرْ إلى قوله تعالى مرةً أخرى في كلامه على الظِّل في الأرض في حياتنا الدنيا:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا
ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا .
ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ و ٤٦].

نلاحظ هنا أن مَدَّ الظل، ثم قبضَهُ وتقلّصَهُ يقابلُ سكونه، فالظِلُّ يمتدُ ويتقلصُ تبعاً لحركة الأرض ودورانها أمام الشمس.

وهكذا فإن المراد من قوله تعالى في وصف المتقين في الجنة بأنهم في (ظلٍّ ممدود) هو أنهم في **ظلٍّ ظليلٍ واسعٍ عريض**، والضوء بعيد عنهم نسبياً حتى لا يؤذيهم أو يزعجهم بحَرّه ووهجه، إلا أن هناك صفةً أخرى لهذه الظلال في الجنة: **إنها ظلالٌ دائمة**، (أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها)، فسبحان الله رب العالمين.

*** ما هو مصدر الضوء في الجنة؟**

إن مصدر الضياء الذي نعرفه في الكون هو في العادة نجوم، أي شموس. أما مصدر الضياء في الجنة فإننا لا نعلم عنه شيئاً، وإذا كانت الجنة والنار جزءاً من «السماوات والأرض» الجديدة[1] وهي مثيلاتُها في حياتنا الدنيا أعضاء في منظومة شمسية تضيئُها الشمس، فغنيٌّ عن القول إنّ «السماوات والأرض» الجديدة لا تشبه منظومتنا الشمسية الحالية إلاّ بقدر ما قد ظهر لنا من وصفه تعالى لها، وأنها من علم الغيب.

*** هل يمكن أن تكون «الأرض الجديدة»، أو «الجنة»، هي الأرض القديمة نفسها في حالٍ أخرى؟**

الجواب: لا.

والأسباب:

١ - إن قولهُ سبحانه: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، قد دلَّ على أرضٍ وسماواتٍ جديدة بعد أن تُزلزَل الأرضُ وتَرْجُف ثم تصيرُ هباءً مُنْبَثّاً.

---

(١) وَيشْهَدُ لذلك قولهُ تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ . . ﴾ [هود: ١٠٨].

٢ ـ وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، وكما ذكرنا سابقاً، المقصود به كواكبنا السيارة. إنّ انفراط عَقْد المنظومة الشمسية بسبب احتضار الشمس يسبّب انتثار الكواكب السيارة بنصِّ القرآن الكريم، فلا بدّ أنّ مصير الأرض سيكون في النهاية مُشابهاً لمصير بقية الكواكب السيارة.

٣ ـ ثم إنّ عَرْض الجنّة هو أكبر بكثيرٍ جداً، وبما لا يُقاس، من عَرْض أرضنا نحن ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، ولذا فلا يمكن أن تكون الأرضُ القديمة هي نفسها الجنة.

٤ ـ قلنا بأنّ الجنة كانت موجودةً في الماضي، كما هي الآن، وفي المستقبل. وكونُها موجودةً الآن بصفتها هذه ينفي بالبداهة أن تكون أرضَنا نفسَها. واللهُ تعالى أعلمُ بحقيقتها[1].

---

(١) وتقول: وكيفَ كانت رؤيته (ص) للمؤمنين في الجنة، والكافرين في جهنم، عند إسرائه، ولم تقم القيامة بعد؟ وأقول: لا تظُنَّنَ أيها الإنسان الصغير الضعيف أنك الكونُ كله، ولا أن آدم وبنيه هم خلق الله تعالى كله.

قال العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي في «الميزان في تفسير القران» جـ ١٢ ص ٩٣: (جاء في المعاني بإسناده عن محمد بن مسلم قال: «سمعتُ أبا جعفر (ع) يقول: لقد خلق الله عز وجل في الأرض منذ خَلَقَها سبعة عالَمين ليس فيهم من ولد آدم. خَلَقَهُم من أديم الأرض وأسكنهم فيها واحداً بعد واحد مع عالمه. ثم خلق الله عز وجل آدم آبا البشر وخلق ذريته منه. لا والله ما خَلَت الحنة من أرواح المؤمنين منذ خلقها، ولا خلت النار من أرواح الكفار والعصاة منذ خلقها عز وجل. لعلكم ترون إذا كان يوم القيامة وصُيِّـرَ(ت) أبدان أهل الجنة مع أرواحهم في الجنة، وصير(ت) أبدان أهل النار مع أرواحهم في النار أن الله تعالى لا يُعبد في بلاده ولا يَخلقُ خلقاً يعبدونه ويوحدونه؟ بلىٰ والله ليخلقن الله خلقاً من غير فحولة ولا إناث، يعبدونه ويوحدونه ويعظمونه ويخلق لهم أرضاً تحملهم وسماء تُظلّهم، أليس الله عز وجل يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾؟ وقد قال عز وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وروى العياشي في تفسيره عن محمد بن مسلم عنه (ع) مثله، وهو غير المعاني التي أوردناها سابقا).

النّار

* **إبرازها وتسعيرها:**

﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ . . ﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١٢].

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٦].

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء: ٩١].

بَرَزَ: ١ ـ خرج إلى الفضاء.

٢ ـ ظهر بعد خمولٍ أو خفاءٍ، خرج إلى الظاهر.

سُعِّرَت النار: أُضرِمَت وازدادت شدّة.

وقولُه تعالى في وصف النار، يوم القيامة، بأنها (بُرِّزَت) قد دلّ على وجودها خافية غير ظاهرة قبل ذلك، أي قبل يوم القيامة، وكذلك هو ما يتبين من قوله سبحانه (سُعِّرَت) للنار، وبذلك قد تواترت الأحاديث الشريفة في رؤيته (ص) لها في أثناء عروجه.

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

إنّ أرواحَ آلِ فرعون تعرض، في البَرْزَخ[1]، كلَّ صباحٍ ومساءٍ، على النار، من

---

(١) البَرْزَخُ، لغةً: الحاجزُ بين الشيئين أن يصل أحدهما إلى الآخر، واصطلاحاً: الفترة ما بين الموت والبعث.

قبل أن يدخلوها يوم القيامة جزاءً على كفرهم وعُتُوِّهم، وهو دليلٌ آخر على أنّ النار كانت وستظل موجودة قبل وبعد يوم القيامة. قال الشيخ مخلوف في تفسير هذه الآية «أي تُعْرَضُ أرواحُهم عليها في الغُدوة والعَشِيّ. والمرادُ: دوامُ عذابها في البرزخ إلى قيام الساعة. وفي الآية إثباتٌ لعذاب القبر».

أقول: وإذا نحن قلنا بأن النار هي الأن في مكانٍ من الكون لا نعلمه، فكيف يُعْرَضُ عليها آلُ فرعون؟ فأما وأنهم ماتوا فإنّ أجسادَهم، وكما نعلم جيداً، قد صارت تراباً أو كالتراب، وأما أرواحُهم فهي الباقية، ولا بدّ أنها هي المقصودة بالعرض على النار، والله أعلم. وإذا كانت النار ليست هنا على الأرض أو في داخلها فيبدو أنّ الأرواح قادرة، بإذن الله ومشيئته، على الحركة لِما لا يُتَصَوَّرُ من المسافات البعيدة، أو أنها تُعرَض على النار بطريقةٍ لا علم لنا بها، والله أعلم.

ووجودُ جهنم من قبلِ قيام الساعة، ثم إبرازُها وتسعيرُها يوم القيامة قد دَلَّ، وعلى العكس مما قد ظنّه الكثيرُ من المفسرين، على أن القيامة لا تصيب الكون كُلَّه.

* وَقودها:

﴿. . فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]

إذا كان العاصون من الناس والحجارة وَقوداً لجهنم فإنها، أي جهنم، ليست الشمسَ ولا أيَّ نجمٍ آخر مثلما قد اعتقد بعض العلماء، إذ ليس في الشمس من وجودٍ للناس ولا للحجارة. إنّ كلَّ شيءٍ يقتربُ منها سرعان ما يتبخّر تماماً قبل وصوله إليها بمسافةٍ بعيدة، فالنار ليست كشيءٍ مما نعرفُه.

إن الجنة والنار كليهما ليس فيهما مما نعرفه في هذا الكون إلاّ اسماهُما، وأمّا صفاتهما فإنّهما تختلفان عن كلِّ ما نعرفه، وإذْ هما توجدان في مكانيْن من الكون لا نعرفهما، فليس هناك، في الكون مما قد عرفه علماء الفلك، شبيهٌ بهما. ورغم كلِّ ما قد عرفه العلماء فما أقلَّ ما نعرف، وما أكثرَ ما لا نعرف.

* * *

ولئن كانت كرتُنا الأرضية الحاليّة هي في بُعدٍ عن الشمس مثاليٍّ يؤهّلها للحياة، وبما لو اختلف فيه بُعدُها أو حرارتها قليلاً جداً، زيادةً أو نُقصاناً، لانتفت من على سطحها شروطُ الحياة من النوع الذي نعرفه، فإنّ هناك كواكبَ في منظومتنا الشمسية، وهي ما اصطُلِح على تسميتها بالكواكب «الأرضية» بسبب قربها، كالأرض، من الشمس، تبلُغُ حرارتُها مبلغاً عظيماً يذكّرُنا بجهنم التي وصفها الحقُّ سبحانه وتعالى لنا في كتابه العزيز كما وصفها لنا نبيّه الكريم (ص). والنار، من بعد ذلك، سِرٌّ من أسرار الغيب لا يعلم حقيقتَها إلاّ الله تعالى وحْده[1].

* * *

*** أسماءٌ أخرى للنار:**

جهنم

الجحيم

السعير

(١) إن النار، تلك التي نعرفها، ليست من أيِّ عنصر معروف، بل هي تتكون من «بلازما» مُشِعَّة، والبلازما ليست تلك التي في الدم، رغم تشابه الاسمين ـ انظر كتابنا «هذا الكون العجيب، من الذرة إلى المجرة»، ص ٣١٠، وكتاب «الكون» لكارل ساغان، ص ١٩٤

الجنة والنار في القرآن

١ ـ ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ . . ﴾ [الزُّمَر: ٧٤].

نتبوأ: أي ينزل كل واحدٍ منّا من جنّته الواسعة حيث يريد.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ فلقد أسمىٰ الجنةَ بأنها أرض.

إذاً فالجنة، في وصف القرآن الكريم، هي «أرض».

٢ ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ .

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ

إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ

إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ .

۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ

إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ

عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٦ـ ١٠٨].

مجذوذ: منقوص.

تربط هاتان الآيتان دوام الجنة والنار بدوام السماوات والأرض، وهما توحيان بأن الجنة والنار هما بعضٌ من مكوّناتِ السماوات والأرض. ولقد رأينا أن الجنة هي أرضٌ، وأثبتنا أن المقصود بـ«السماوات والأرض» التي نعرفُها، والتي جاء ذِكرُها في

القرآن الكريم، منظومة من كواكبَ هي كواكِبُنا السيّارة، تدور حول شمسٍ هي شمسُنا. فالجنةُ هي أرضٌ كأرضِنا، وقولُنا إنها كذلك لا يعني أنها تُشابه أرضنا، اللهم إلاّ من حيث كونها جُرْماً صُلْباً، لا فضاءً، وأنّها مَقَرُّ المُتّقين. أمّا ما لم يصلنا من صفاتها، من خلال كتاب الله تعالىٰ وحديث رسول الله (ص)، فإنّه من علم الغيب.

***

ونحن نُعيد القولَ هنا بأن الجنة حقّ، والنار حقّ، وأنَّها كلها من أسرار الغيب التي لا يعلمها إلاّ الخالقُ تعالى وحدَه. ونحن قد اقتصرنا في بحثنا هذا على محاولة فهم وتوضيح ما قد بيّنه المولى سبحانه لنا في كتابه الكريم ليس غيرُ، ومن غيرِ أن نتعدّى ذلك إلى ما هو أبعد منه أو أن ندّعي ما لا دليل عليه من الكتاب والحديث، وهو، أي ما قد ذكرناه، تشهد لِصحّته شواهدُ العلم الحديث. وإننا لنرى فيما قد بحثناه عوناً للمؤمن على مزيدٍ من الفهم لكتاب الله تعالى وبما يُعمِّق من إيمانه، مثلما هو تبيانٌ لغير المؤمن عمّا جاء من الحق من عند الخالق في كتابه الكريم، وبما قد يُنيرُ بصيرته ويهدِيهُ سبيل الرشاد.

الباب العاشر

الصُّعود في الأعالي

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق: ١٩].

﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدَّثِّر: ١٧].

* * *

ما هذا؟

إنَّ كلام الله تعالى هذا، في كتابه الكريم، قبل (١٤) قرناً، هو كلامٌ لليوم والمستقبل مثلما هو كلامٌ للأمس، وهو يُـذَكِّرُنا، على الفور، بأحاديث علماء اليوم على الرِّحلات الكونية والانتقال من محطةٍ فضائية إلى أخرى. حقاً إنه لَلْعَجَبُ العُجاب أن يجيء في كتابِ الله تعالى ذِكرُ تلك المعجزات الباهرة التي لم تخطر قطّ على بال في ذلك الزمان.

* * *

ولا بدّ أن نلاحظ أنّ الإنسان، في العصر الحاضر، مؤهلٌ لنظرةٍ شموليةٍ أوسعُ مدىً وأعمقُ فهماً للآيات القرآنية ممّا سبق، بسبب ما قد اكتشفه من أسرار الكون والإنسان.

فقوله تعالى، مثلاً: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾، وقوله: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ يجيء إلى الفكر بصورةٍ فوق تلك الصور لمن قد عاش قبل ألفٍ من السنين. والآية الأولى مثيرةٌ في مشابهة مفرداتها لقاموس علماء الفضاء اليوم وفي إعجاز تركيبها، وكذلك هي الآية الثانية. حقّاً إنه كلامُ ربِّ العالمين المعجز.

* * *

وإذا كان كتابُ الله تعالى قد تحدّث على عُروج الروح والملائكة يوم القيامة ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وهو عُروجٌ في الفضاء، بعيداً عن الأرض، فإنّ قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ و﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هو حديثٌ على صُعودٍ من نوعٍ آخر في الفضاء للناس لا للملائكة. وإذا كانت الآيةُ الأولى تتحدث على صعود الكافرين فإن الثانية تتحدث على الناس جميعاً. ونستنتج من ذلك أن الناس جميعاً يذهبون، عند قيام قيامة الأرض، في صُعود، إلا أنّ صعود الكفار صعودٌ بالغُ الرَّهَق والمعاناة، ثم إنه صعودٌ سَرعان ما يتوقّف ككلّ سيرٍ من هذا القبيل.

* * *

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المُدَّثِّر: ١٧].

ما الدليل على أنّ هذه الآية نزلت في يوم القيامة؟

لننظر إلى هذه الآية الكريمة في سياقها من سورة المدثّر، فنجد أنها قد سبقتها الآيتان (٨) و(٩) من السورة نفسها: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ. فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، أي إذا نُفِخَ في الصُّور وخرج الأموات من القبور يوم القيامة. وإليك هذه الآياتِ كاملةً من سورة المدثِّر:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ.
فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ.
عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ.
ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا.
وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا.
وَبَنِينَ شُهُودًا.
وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا.
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ.

كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا .
سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا .
إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ .
فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثّر: ٨ ـ ١٩].

المعجم الوجيز:

صَعِدَ: علا.

الصَّعُود: المشقّة.

المنجد:

الصَّعُود: ١ ـ ضد الهبوط.

٢ ـ الطريق صاعداً.

٣ ـ العقبة الشّاقة. يُقال لأُرْهِقَنَّكَ صَعوداً، أي لأُجَشِّمَنّك مشقّةً.

صُعُداً: الصُّعُد: العُلوّ، يُقال «هبطَ من صُعُدٍ» أي من عُلُوٍّ؛ «وهذا النبات ينمو صُعُداً» أي يزداد طولاً.

يَصَّعَّد: يرقى، يَصْعَد، يعلو.

﴿. . وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجنّ: ١٧].

﴿. . يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ . .﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أرهَقَه: حَمَلَه على ما لا يُطيقُه.

قال الشيخ مخلوف: (سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا) سَأُغْشِيه عقبةً شاقّةَ المَصْعَد. وهو مَثَلٌ لِما يُلقى من العذاب الشّاق الصعب الذي لا يُطاق، ولا راحةَ منه.

وقال الشيخ مغنية: يُصْعَدُ به إلى أرفع الدرجات من العذاب وشدّته والحريق وقسوته.

وأقول إنني لا أرى في قوله تعالى: «صَعوداً»، و«صَعَدًا»، و«يَصَّعَّدُ»، إلا المعنَيَيْن في آنٍ:

١ ـ العذاب والمشقَّة.

٢ ـ أن يسير الإنسان في صعودٍ نحو الأعالي.

إنّ إضافة هذين المعنيين إلى بعضهما تكشف لنا أن الكافر يسيرُ صاعداً في السماء ولكن بمشقَّةٍ بالغة شديدة.

ولقد رأينا، في هذا الكتاب، كيف أنّ من معجزاتِ القرآن الكريم أن تجيء الكلمةُ الواحدة في الموضع الواحد وهي ينطبقُ العديدُ من معانيها، لا المعنى الواحد، على واقع الحال.

ويَزيدُك اطمئناناً إلى ما ذكَرْنا قولُ الحقِّ سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ . . ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فقولُه سبحانه: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ قد دلَّ على أن هناك أبواباً، أو طُرُقاً ومَسارات، في السماء، تؤدي إلى الجنة، وأن هذه الأبواب لا تُفتح للمجرمين من المكذِّبين والمستكبرين، فلا يستطيعون المُضِيّ فيها. وٱنظُرْ مرّةً أخرى إلى قوله تعالى: ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ تَرَ أنّ كلتا الآيتين تتحدثان على يوم القيامة، وعلى الكافرين، وأن صعودهم صعبٌ مُرْهِق، ثم إنّ أبواب السماء من بعدها مُغلقةٌ في وجوههم. وإذا نحن عَطَفْنا ذلك على الصراط وما قد جاء في الأثر عنه من أنّه «جسرٌ» على متن جهنم يؤدي إلى الجنة، يعبُرُه الناسُ بِحَسَبِ أعمالهم، اكتملت الصورةُ أمامنا وتوضّحت، وزدنا اطمئناناً إلى ما نقول.

أبواب السماء

قد تجيء كلمة «الباب» أو «الأبواب» في القرآن الكريم، بالمعنى المعروف، أي المدخل. وقد يكون ذلك في الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ . . ﴾ [يوسف: ٦٧]، أو هو قد يكون في الحياة الآخِرة، كقوله تعالى في أبواب الجنة: ﴿ . . حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ . . ﴾ [الزمَر: ٧٣]، وأبواب النار: ﴿ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴾ [الحِجر: ٤٤]، وأمّا قولُه سبحانه: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴾ فذلك في بداية يوم القيامة، إذ تنفطر السماء وتنشقّ فتصير أبواباً.

* * *

ٱنظُر إلى قوله تعالى:

١ ـ ﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴾ [الحِجر: ١٤].

يَعْرُج عُرُوجاً ومِعْراجاً: يذهبُ في صُعود.

تجد أن (العُروج) يرجع إلى (الباب)، لا (السماء)، أي أنهم ظلّوا يعرُجُون في الباب، وهذا العُرُوج، أو الصعود في السماء، يتمّ عبر طريقٍ طويل طويل فكأنه لاينتهي ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴾.

ونجد هنا معنًى جديداً للباب، فبابُ السماء هنا هو **الطريق الطويلة الطويلة التي يصعد فيها السائر**.

وكيف لا تكون طُرُق السماء بالغةَ الطول، يُخَيَّلُ للسائر فيها أنه يَظَلُّ فيها سائراً سيراً لا ينتهي؟ أوَلم نعلم بأنّ أبعادَنا نحن، على الكرة الأرضية، وهي تُقاس بالسنتمترات، والأمتار، والكيلومترات، هي لا شيء تقريباً بالنسبة إلى أبعاد الكون؟ وأنّ أبعاد الكون تقاس بالسنين الضوئية؟

حقّاً إنّ معنى الآية الكريمة هذا مُعْجِزٌ ضمن مُعجزاتها الأخرى، في دَلالتها على عمق الكون واتِّساعه البالغ.

وصدق الله العظيم ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾.

٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

لقد رأينا في الآية الأولى أن أبواب السماء تَدُلُّ على مساراتها الصاعدة البالغة الطول، والمقصود بقولنا (الصاعدة) هنا هو (المبتعدة) عن الأرض أو المكان الذي كانت فيه. ونحن نجد في الآية الثانية أن طُرُقَ السَّماء لا تُـفَتَّحُ للكافرين، فلا يمكنهم الصعود فيها. فلقد بَـيَّنَ الحقُّ سبحانه وتعالى حِرمان الكافرين من اختراق السماء والصعود، أو العروج، فيها. وقد دَلَّ ذلك بالضرورة على أن فتح أبواب السماء هذا، أو العُروج فيها، محصورٌ بالمتّقين، ولا بدّ أن هذا الأخير يؤدي إلى الجنة، لأن الجنة هي مستقرّهم.

يصيرُ المتّقون، يوم القيامة، من الأرض التي قامت قيامتها إلى مُستقَرِّهم الجديد. ونقول بأنه جديد وما هو بالجديد، لأنه كان موجوداً قبلاً. إنها الأرض التي يَرِثُها عبادُ الله الصالحون، والتي قال عنها الحقُّ سبحانه على لسان المتّقين: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ . . ﴾ [الزُّمَر: ٧٤].

لكنّ انتقال الإنسان من الأرض القديمة إلى مُسْتَقَرِّهِ الجديد، الجنّة، رغم أنها قد قُرِّبَتْ منه، أو (أُزْلِفَتْ) له، يستدعي صعوداً في الفضاء، أو عروجاً، ولعل ذلك هو تفسيرُ قوله تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾.

الصِّراط

والصِّراط، ما شأنُه؟

الصِّراطُ، لغةً، هو الطريق.

ولقد أجمع العلماء، في المنقول من الأثر، على أنه جسرٌ على مَتْن جهنم، أي فوقَها، يعبُرُه الناس جميعاً إلى الجنة، ومن سقط منهم هوى إلى النار، وأن الناس يعبرونه على اختلافٍ في سرعة عبورهم، وبحسب أعمالهم. فمنهم من هو يعبُرُ كالبرق[1]، ومنهم من هو أقلُّ من ذلك، ومنهم من هو بطيءٌ بطيء بسبب عمله الذي يُرْديه إلى النار، فهو حينئذٍ يُلاقي مشقّةً عظيمة مرهقة في عبوره، أو صعوده، عبر الصراط. وقد يكون ذلك نفسه هو تفسيرُ قولِه تعالى: ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾، وقوله: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾، فلقد قلنا بأن أبواب السماء قد تجيء بمعنى مساراتها البالغة الطول.

ولا شكّ أن هذا الموقف، في عبور الصراط، رهيبٌ مفزع، كيف وهو الفيصل بين الجنة والنار، والحياة أو الموت الأبديّين؟ لكنّ المتّقين يومئذٍ آمنون فرحون مستبشرون لا يَحزُنُهم الفزعُ الأكبر ﴿ . . أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ . . ﴾ [فُصِّلت: ٤٠].

لكنّ الفَزَعَ، كلَّ الفزع، هو للكافرين والجاحدين، وهو نتيجةٌ طبيعية يتوقّعونها ويعرفونها كمعرفتهم لأنفسهم، إنّه طريقٌ صعبٌ صعب، وهو مشحونٌ بالأهوال، فوق أنه مشحونٌ بالخوف والفزع إلى درجة الموت.

﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾. إنَّه الرَّهَقُ أو الإرهاق، والشِّدَّةُ التي ما بعدها شِدّة.

---

(١) نلاحظ هنا، مرةً أخرى، تشبيه سرعة عبور المؤمن للصراط بسرعة البرق، أو الضوءِ، الذي هو أكثرُ شيءٍ نعرفه سرعةً في الكون.

وأمّا قولُه تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ فقد يكون إشارةً إلى صعودِ الناس جميعاً، عَبْرَ الصراط، والله أعلم بمراده.

***

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ٦٦].

استبَقُوا: سابَقَ بعضُهم بعضاً.

أقوال علماء التفسير في معنى الآية:

ابن عباس: لأعميناهم عن الهُدى فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق.

الحسن والسّدي: لتركناهم عُمْياً يتردّدون.

مغنيّة: أي لو أراد سبحانه أن يعاقبَ المجرمين في الدنيا لأعمىٰ أبصارهم حتى إذا أرادوا السير على الطريق والاهتداء إليه لتعذّر ذلك عليهم.

مخلوف: أي في قُدرتنا إذا شئنا أن نمحُوَ أعينهم ونمسَحَها. أو أن نُزِيلَ ضوءها فيصيروا عُمْياً لا يقدِرون على التردّد في الطريق لمصالحهم، ولكنّا أبقينا عليهم نعمة البصر فضلاً منّا.

هكذا نرى أن جُلَّ المفسّرين رَحمهم الله، قالوا بأن المقصود بالصراط في الآية الكريمة هو الطريق في الحياة الدنيا، لكنّ القرطبيّ أورد عن عبدالله بن سلام في تفسير الآية غير ما تقدم، وتأوَّلَها على أنها في يوم القيامة، قال: إذا كان يومُ القيامة ومُدَّ الصراط، نادىٰ مُنادٍ لِيَقُم محمدٌ (ص) وأمّته، فيقومون بَرُّهُم وفاجرُهم يتبعونه ليجوزوا الصراط، فإذا صاروا عليه طَمَس اللهُ أَعْيُنَ فُجّارِهم، فٱسْتَبَقُوا الصراط، فمِن أين يُبصرونه حتىٰ يجاوزوه.

ونحن نذهب إلى أنّ الآية هي في يوم القيامة، وهذه هي الأسباب:

١ ـ إنّ الآية المذكورة قد سبقها قولُه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ

﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وهي في يوم القيامة.

٢ ـ ثم إنّ الطمسَ على الأعين، عند استباق الصراط، هو من جنس الختمِ على الأفواه، وتكليمِ الأيدي، وشهادةِ الأرجل، وهي كلها مما يصيب الإنسان يوم القيامة، والسياق يقتضي أن يكون طمسُ العيون يوم القيامة أيضاً.

٣ ـ إنّ الآية الكريمة تذكر استباق الصراط، وهو التسابق على «الطريق» بين الناس، ولنا في قوله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أمور:

* إنَّ عدمَ القابلية على استباق الصراط هو نتيجة تابعة لِطَمْس البصر.

* أنْ يقومَ الأعمىٰ بالتسابق مع الآخرين، وبمحض إرادته، في الطريق لَهُوَ أمرٌ غيرُ معقول، اللهم إلا في حالةٍ واحدة، وهي أن يُضْطَرَّ إلى ذلك اضطراراً. إنّ الأعمى، إذا هو سار، يتريّث في سيره ويتلكأ، متفحصاً الطريق بعصاه، ومتوجّساً لأيِّ صوت، فهو لا يمشي بالسرعة التي يمشي بها الآخرون. ولا أظُنُّ أحداً قد رأى أعمى يسابقُ غيره في الطريق. أمّا قولُنا بأن التسابق إنما هو تسابقٌ على الصراط في يوم القيامة، عبوراً فوق متن جهنم، وبما يؤدي في النهاية إلى الجنةَ، فهو قولٌ ينسجم تمام الانسجام مع معنى قوله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾. إن الكافر مُضْطَرٌّ إلى عبور الصراط يوم القيامة لأنه مأمورٌ بذلك كبقية الناس أجمعين، ثم إن هناك فوق ذلك عقبةً أكبر وأشدّ، إذ لا بدّ من أن يُسرِع بأشدِّ ما تكون السرعة، حتى لا يَهوي في النار، وأنّىٰ له ذلك.

قال الإمام علي، في خطبته المسماة بـ«الغرّاء»: «واعلموا أنّ مَجازَكُم ـ أي اجتيازكم ـ (هو) على الصراط ومزالق دَحْضِهِ، وأهاويل زَلَلِهِ، وتاراتِ أهواله».

مجازكم: اجتيازكم.

مزالق دحضه: الدَّحْض هو انقلاب الرِّجْلِ بغتةً فيسقط المارّ، والمزالق مواضع الزّلل والانزلاق.

التارات: النُّوَبُ والدَّفَعات.

وفي روايةٍ قال أبو سعيدٍ الخدريّ: «بلغني أنّ الجسرَ أدَقُّ من الشَّعر وأحَدُّ من السيف»، وفي روايةٍ: «أرَقُّ من الشَّعر»، رواها مسلم.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا . . ﴾ [مريم: ٧١]، رُوي عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ وكعبِ الأحبار أنهم قالوا: «الوُرود المرورُ على الصراط»، رواه السدي عن ابن مسعودٍ عن النبيّ (ص).

لتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عن طَبقٍ

ابنُ مسعود: لتركبُنَّ السماءَ حالاً بعد حال.

لِسانُ العرب: الطبقُ غِطاءُ كلِّ شيء، طَبَقُ الأرضِ وجهُها، والسماوات الطِّباق سُمّيت كذلك لمطابقةِ بعضِها بعضاً، أي بعضُها فوق بعض.

محمد محمود الصوّاف[1]: «قال العلماء إنّ في هذه الآية ثلاثُ قراءات:

أحدُها بضمّ الباء (لتركبُن)، والثانية بفتحها (لتركبَن)، والثالثة بكسرها (لتركبِن). وقالوا إن لكل قراءةٍ من هذه القراءات معنًى تدلُّ عليه:

١ ـ فمن قرأها بالضّمّ (لتركبُنَّ)، فإن الخطاب فيها للجمع، ويكون معناها لتركبُنَّ **أيها الناس**أحوالاً بعد أحوال إلى أن يستقرّ الأمر على ما يُقضىٰ به على الإنسان أو لَهُ من جنّة أو نار.

ومعنى آخر: هو أن الناس تنتقل أحوالُهم يومَ القيامةِ عمّا كانوا عليه في الدنيا.

ومعنىً آخر: هو أن الناس يَلْقَوْنَ يوم القيامة أحوالاً وشدائد، حالاً بعد حال، وشدّةً بعد شدة.

---

(١) «القيامة رأي العين».

وعن الزَّجّاج: لتركبُن طبقاً عن طبقٍ من أطباق السماء.

٢ ـ أما القراءة بالفتح (لتركبَنَّ) فقد ذُكِر له معنيان:

* الأول إنه خطابٌ للرسول (ص)، أي لتركبَن يا محمد حالاً بعد حال. قال ابن عباس، وعن الشعبي: لتركبَن يا محمد سماءً بعد سماء، ودرجةً بعد درجة. وقال ابن مسعود: لتركبَن السماءَ حالاً بعد حالٍ، أي لتركبَن يا محمد السماوات طبقاً عن طبق، وقد قال تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ وقد فعل ذلك ليلة الإسراء.

* والمعنى الثاني هو أن الخطاب **للإنسان**، أي لتركبَن أيها الإنسان حالاً بعد حال، من كونك نطفةً، ثم علقةً، إلخ..

٣ ـ أما القراءة بالكسر، فالخطاب حينئذٍ يَتَوَجَّهُ إلى **النفس الإنسانية**، أي أيتها النفس الإنسانية لتركبِن من حالٍ إلى حال».

وأقول: إن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ يدلُّنا على معنى قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، إذ إننا نرى أن معناها: لتركبُن، أيها الناسُ سماءً بعد سماءٍ، يوم القيامة.

ولمعرفة معنى هذه الآية لا بدّ لنا من النظر في مكانها من سورة الانشقاق:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ.
وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ.
وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ.
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٦-١٩].

الشَّفَقُ: الشَّفَقةُ، لُغةً، رِقَّةُ الشيء، وهو الاسم من الإشفاق، وهو رقَّة القلب.

والشَّفَقُ هو الحمرةُ التي تكون بعد مغيب الشمس. قال القرطبي: فالشفق بقيةُ ضوء الشمس وحمرتها، فكأنّ تلك الرِّقَّةَ من ضوء الشمس.

وما وَسَق: وما جَمَع.

والقمرِ إذا اتَّسَق: قال ابنُ عباس أي استوى واجتمع وتكامل، أي صار بدراً، وهي ثلاثُ ليالٍ.

بعد حديث سورةِ الانشقاق على مشاهدَ من يوم القيامة يُقْسِمُ الحقُّ سبحانه وتعالى ببديع خَلْقه، دالاً على عظيم قدرته، مُشيراً إلى ركوبِ طبقٍ عن طبق، بعد أن يـذكـر بعـث الإنسـان الـذي كـان يكـذِّب بـه الكـافـرون. ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الانشقاق: ١٤﴾، أي لن يرجع[1]. وإذا نحن قرَنّا آية ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ بآية ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ لرأينا أنها تدلّ على صعود الفضاء، سماءً بعد سماء، يوم القيامة.

ورَكِبَ الشيءَ: علاهُ، وقولُه تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ قد دَلَّ على الانتقال في المكان، لا تَغَيُّرَ الحالِ وحده، والانتقالُ من طَبَقٍ إلى طَبَق هو انتقالٌ في المكان من سماءٍ إلى سماء.

والآياتُ التي تتحدث على الشفقِ، والليلِ، والقمرِ، ترسمُ لنا صوراً ثلاثاً:

١ ـ الصـورةُ الأولـى هـي صـورة الشَفَـق[2]، وهـو بقيـة ضـوء الشمـس عنـد

(١) قال ابن عباس: ما كنتُ أدري ما يَحُور، حتى سمعتُ أعرابيةً تدعو بُنَيَّةً لها وتقول: حُوري، حُوري: أي ارجعي إليّ.

(٢) تبدو لنا السماء، نحن سكان الأرض، ساطعةً نهاراً، والسبب في ذلك هو وجود الغلاف الجوي للأرض، وكذلك هو حدوث الشَفَق عند الغروب والانتقال التدريجي من ليلٍ إلى نهار وبالعكس. أما لو لم يكن هناك غلافٌ جوي للأرض، مثلما هو الحال في القمر وعُطارد، وكما يحدث في أعالي الفضاء، أي ما بعد غلافنا الجوي، فإن مقالةً لأحد رواد السفينة الفضائية (كولومبيا)، العالِم الفيزياوي (جوزيف ألن) نُشرت في صحيفة (الواشنطن بوست) عام ١٩٨٣ توضح الأمر:

«في الفضاء يحل الليل بصورة مفاجئة وبسرعة تقطع الأنفاس وتُغشي العيون وليس بصورة تدريجية كما هو الحال في الأرض، فليلُ الفضاء الخارجي هو من أشد الأشياء السوداء التي رأيتها في حياتي. في الفضاء الخارجي، تظهر الشمس فجأةً وتلمع كأنّها ضوءُ صاعقةٍ مبددةً في خلال ثوانٍ هذا الليل الحالك، إذ لا وجود في الفضاء الخارجي لِشروقٍ أو غروبٍ تدريجي للشمس بل في ثوانٍ، بل هناك ليلٌ مظلم من أحلك الظلمات أو نهارٌ ساطع النور».

فلو لم يكن هناك من غلافٍ جوي للأرض لما كان هناك ذلك المنظر الرائع الساحر لشروقٍ أو غروب، ولا من شَفق، ولَكِنْ أقسم الحقّ سبحانه وتعالى بها تبياناً لفضلهِ علينا.

الغروب، ترسمُ أمامكَ صورةَ الشمس الغاربة والليل القادم، أو النهار مُدبراً والليلَ مُقبلاً، فهو حالٌ بين حالين: هو آخِرُ النهار وأوّلُ الليل.

٢ ـ وتليها الصورة الثانية: ليلٌ مظلمٌ بَهِيم، يُغطّي بظُلمته كُلَّ شيءٍ على وجه الأرض، وهو ما يُشيع الرهبة والوحشة في تلك النفوس المتلفّعة بتلك الظُّلمة العجيبة التي تستولي على كل شيءٍ فتَلُفُّه وتطويه بيد الله القادر المبدع.

٣ ـ وترسم لنا الصورة الثالثة بدراً كاملاً يسطعُ، من بعد ذلك، في تلك التُّخُوم المظلمة فينطق بقدرة القادر المُنعم على عباده باللطف والجمال، وهو يبدّد تلك الظلمة ليس بضوء الشمس الشامل الذي يغمرُ كلَّ شيءٍ، بل بالنور الرقيقِ الرهيفِ الذي يُشيع في النفس ذلك الشعور بالجلال والجمال وقدرة الخالق سبحانه.

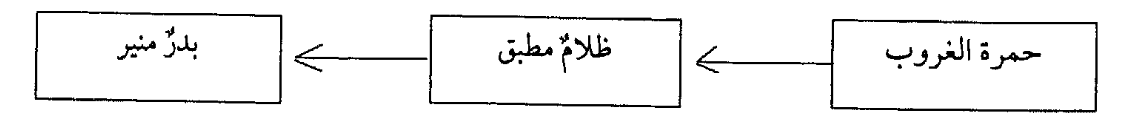
وما ضَرَّ الإنسانَ أنْ لو لم يكن هنالك مِن قمرٍ ولا بدر، ولا شفقٍ، ولا ليلٍ بهيمٍ شديد البُهْمَة أو ضوءِ نهارٍ شديدٍ باهر؟ كان يمكن للحياة أن تسير من دون ذلك كله، ولكنها رحمةُ الله تعالى ولطفُه الذي يَهَبُك دائماً فوق ما تحتاج، وأكثرَ مما تُريد أو يخطُر على بالك. إنه التكريمُ للإنسان بهبته كل ما يحتاج، وفوقه أيضاً من صنوف التكريم بالجمال والجلال، والسِّحر والبهاء.

فالآيةُ الأولى ترسُمُ لنا مشهداً باللون الأحمر الوردي.

وترسمُ الآيةُ الثانية لنا مشهداً باللون الأسود القاتم.

ثم إن الآية الثالثة تُرينا لوناً أبيضَ فِضِّياً.

وهكذا هي الصورة إذاً، صورةٌ مبهرةٌ رائعة، صورةٌ فيها البصيص المتراجعُ من النور، يعقبُه الظلامُ الدامس، ثم هو سرعان ما ينكشف ببعض النور من جديد:



إنها صورةٌ تنطق بالحياة، وبالتغيّر الذي يحيط بالإنسان فيؤثر فيه أشدّ تأثير.

ثم إنها، كلها، صورٌ تَمسُّ ذلك الجانب من اليوم الذي يلي النهارَ وضوءَه.

إنها الغروب، وما بعد الغروب، وإنّ مِن بعد الغروب لَنورًا.

واللهُ تعالى، خالقُ ذلك كلّه يُقْسِمُ به ليؤكّد بعدها في آية (لتركبُن..) أنّ البعث والنُّشُور والقيام للحساب كائنٌ لا مَحالة، وأن الإنسان لَراكبٌ طبقاً عن طبق، وسماءً بعد سماء.

وإننا لنرى في آية ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، والله تعالى أعلم بمراده، أنها فوق دلالتها على انتقال الإنسان من حالٍ إلى حال يوم القيامة، فإنها تدلّ على الصعود في السماء، أو «العُروج» فيها.

والذي خَلَق الكونَ وظواهره الكونية الرائعة، أليس هو بِقادرٍ على أن يُصْعِدَنا فيه؟

قال الدكتور عدنان الشريف في كتابه «من علم الفلك القرآني. الثوابت العلمية في القرآن الكريم» بأن المولى قد أقسم «بالشَفَق» و«الليل» و«القمر» بأن الإنسان سيركب طبقاً عن طبق، أي سينتقل من سماءٍ إلى سماء، وهذا ما حَصَلَ بعد قرونٍ من التنزيل، أي في انتقال الإنسان في الفضاء في العصر الحديث.

وأقول: قد يكون ذلك وجهاً من وجوه تفسير الآية الكريمة، إلا أن هناك وجهاً آخرَ أظهر منه وأقوى، ذلك لأن ورود هذه الآية في معرض الحديث على يوم القيامة، وفي سورةٍ هي سورة (الانشقاق) التي تتحدث كلها على أحداثِ يوم القيامة، وفي معرض التهديد والوعيد للكافرين، إنّ ذلك كله يجعلنا نعتقدُ بأن المقصود منها هو يوم القيامة.

ثم ٱنظرْ كيف أنّ حُمْرَةَ الشَّفَق الوردية تذكّرُك بحُمْرة الفضاء الوردية عند انشقاق السماء الذي جاء ذِكْرُه في أولِ آيةٍ من سورة الانشقاق، وٱنظرْ كيف أنّ ظلام الليل البهيم يذكّرُك بالموت، موت الخلائق كلها، ثم انظر كيف أن نور البدر في اتّساقه يذكّرُك بالبعث، إذ لا جِدال في أنّ تحوّل أحوال الإنسان، يوم القيامة، يرتبط

أكبر ارتباطٍ بما يصيب العالَم من تغيّرٍ عظيم في عالم الضياء، والنور، والحُمْرة، والظُّلمة.

وقد قال تعالى: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩].

والأبواب لا تكون إلاّ للدخول. فإذا كان الإنسانُ مقصوداً بذلك، وهو ما يدلُّ عليه سِياقُ القول، فإننا نرى في الآية الكريمة إشارةً إلى خروج الإنسان من الأرض، بعد بعثه، من خلال هذه الأبواب، أو المنافذ، إلى الفضاء الخارجي، فيصير خروج الإنسان من الأرض هو نفسُه عُروجُه في السماء، وإن هذا التفسير لَيُـقَوِّي الرأي الذي قد رجّحناه من أنّ الإنسان يَعْرُج يوم القيامة، بعد البعث، في الفضاء، أو «السماء»، إلى حيث أراد الحقُّ سبحانه له، بعد أن قامت قيامةُ الأرض والمنظومة الشمسية، إلى الأرض الجديدة التي ذكرها تعالى بقوله: ﴿. . وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ. . ﴾ [الزُّمَر: ٧٤].

وإنّ في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحِجْر: ١٤]، لَدليلاً على أن أبواب السماء إنما هي للعُروج من الأرض إلى خارجها، عروج الإنسان. أمّا ما قيل من أنّ الأبواب، أي «أبواب السماء»، إنما هي لمجيء الملائكة والروح يوم القيامة فإننا لا نرى أيّ دليلٍ على ذلك، كيف وإنّ الملائكة والروح هي مخلوقاتٌ روحانية لا تحتاج إلى أبوابٍ ماديّة؟ إنّها تجيء إلى الأرض في كل حين، أو «تصعدُ» منها، من دون حاجةٍ إلى أبواب، في الماضي كما هو الآن وكما في المستقبل. والله تعالى أعلم بمراده.

الأعراف

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ.

۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ.

أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ.

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٧ ـ ٥٠].

تدلّ هذه الآيات الكريمة على أنّ الجنة، يومئذٍ، قريبةٌ من النار، وأنّ هناك «حجاباً» يفصل بينهما. ولا بد من الإشارة إلى أن هذا «الحجاب» أو «السور» هو في طبيعته كطبيعة الجنة والنار، إذ إنّه ليس كمِثْل ما نعرفه في الدنيا في شيء اللهم إلاّ أنه يحجب ما بين الاثنتين، وأمّا باقي صفاته فهي كصفات الأمور الأخروية الأخرىٰ من جّنةٍ ونار لا نعرف عنها إلا أسماءها. ويتحدث يومئذ المتّقون إلى الكافرين وبالعكس.

ولا شك في أن لله تعالى حكمةً بالغةً في أن يَعرِفَ كلٌّ قومٍ، وهُم على ما هُم عليه من التغيّر العظيم الذي لا يوصف والذي طرأ على حياتهم، أن يعرفوا أحوال القوم في الجانب الآخر، وبذلك يزداد ويتضاعف تأثُّرُهم. فأصحابُ النار يألمون أشدَّ تألُّمٍ لِما هم فيه من عذابٍ ليس بَعدَهُ من عذاب، وتارةً أخرىٰ لِما هو عليه القوم في الناحية الأخرى من نعيمٍ ليس فوقه نعيم. وكذلك هو تأثّرُ أهلِ الجنة، فهم فرحون، مستبشرون، يحمدون الله تعالى على ما قد نجّاهُم من الكَرْبِ العظيم وعلى ما قد أنعمَ به عليهم. هي أحوالٌ مختلفة، بل ومُتضادّة، بأشدّ ما يكون الاختلافُ والتّضادّ.

الباب الحادي عشر

القيامةُ في القرآنِ الكريم

آيات القيامة

استفاض الحديثُ، على يوم القيامة، في الكثير من سُوَر القرآن الكريم، وبالأخص في السُّوَر المكِّية منه، كالقارعة، والزلزلة، والغاشية، والانشقاق، والمطففين، والانفطار، والتكوير، والقيامة، والحاقّة، والواقعة، والطُّور، والدُّخان، وغيرها. هذا وإن اسم السورة، وكما هو الحال دائماً في كتاب الله تعالى، هو عنوانٌ على أهمٍّ أو أبرز ما في السورة من مواضيع.

جاء في الحديث عن رسول الله (ص) أنه قال: من سَرَّهُ أن ينظرَ إلى يوم القيامة كأنّه رأيُ عينٍ فليقرأ «إذا الشمسُ كُوِّرَت، وإذا السماءُ انفطرت، وإذا السماءُ انشَقَّت». وسنتناول هذه السُّور الثلاث بشرحٍ يسير لبعضٍ من معانيها التي لم نتطرَّق إليها سابقاً، ونحن نذكر الآيات الكريمة التي تتحدث على يوم القيامة، من كلٍّ سورة، ولكن ليس على سبيل الحصر.

من سورة التكوير

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ .
وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ .
وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ .
وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ .
وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ .
وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ .

وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ .
وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ .
بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ .
وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ .
وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ .
وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ .
وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ .
عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [١ ـ ١٤].

وإذا النفوسُ زُوِّجَت: عادت كلُّ نفسٍ إلى الجسم الذي فارقَته عند الموت.

اختصّت أول (١٤) آية من سورة التكوير بذكر أحوال يوم القيامة وأهواله، وأمّا القسم الثاني منها فهو يتحدث على حقيقة الوحي على رسول الله (ص).

١ ـ تبتدىء سورة التكوير بالحديث على نهاية الشمس، ولقد رأينا أن الأدلّة تشير إلى أن القيامة تصيبُ المنظومة الشمسية وحدها، وقلنا إن سبب الاضطراب العظيم الذي يصيب الأرض والكواكب السيارة الأخرى هو احتضارُ الشمس، أو تكويرها، والذي هو العِلّة في تسبيب حوادث يوم القيامة. وأما وأنّ الأمر كذلك فإننا نكتشف سبب تسمية سورة «التكوير» بهذا الاسم، وابتداء السورة في حديثها على يوم القيامة، في أوّلِ آيةٍ منها، بقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

٢ ـ ثم قولُه سبحانه: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾، وهو مِثْلُ قوله: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، إشارةً إلى اختفاء ضوء النجوم بسبب انكدار جوِّ الأرض الناتج عن تكوير الشمس.

٣ ـ وتجيء الإشارة إلى ما يُصيب الأرض، ببرِّها، وجوِّها، وبحرها، وبمن فيها، في الآيات (٣ ـ ١٠).

٤ ـ ثم ذِكْرُ إزالة غلاف الأرض الجوي (كشط السماء).

٥ ـ ويجيء أخيراً ذِكْرُ تسعير الجحيم، وإزلاف الجنة، وعندها يتبيّن الخبرُ اليقين وتعرفُ كلُّ نفسٍ ما قَدَّمَتْ (الآيات ١١ ـ ١٤).

من سورة الانفطار

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ.
وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ.
وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ.
وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ.
عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [١ـ٥].

﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ.
وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ.
يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ.
وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ.
وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ.
ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ.
يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [١٣ـ١٩].

تتكلم هذه الآيات على:

١ ـ انفطار السماء، وهو تشقّق غلاف الأرض الجوي.

٢ ـ ثم انتثار الكواكب السيارة.

٣ ـ ثم الحسابُ، والجزاء، والعقاب.

من سورة الانشقاق

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ .
وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ .
وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ .
وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ .
وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ .
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ .
فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ .
فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا .
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا .
وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ .
فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا .
وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا .
إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا .
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ .
بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا .
فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ .
وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ .
وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ .
لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ .
فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ .
وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ .
بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ .
وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ .

فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [١-٢٥].

من سورة عَبَس

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ .
يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ .
وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ .
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ .
لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ .
ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ .
وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ .
تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ .
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ [٣٣-٤٢].

من سورة النازعات

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ .
تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ .
قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ .
أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ .
يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ .
أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً .
قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ .
فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ .
فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ [٦-١٤].

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ .
يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ .
وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ .
فَأَمَّا مَن طَغَىٰ .
وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا .
فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ .
وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ .
فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ .
يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا .
فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ .
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ .
إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا .
كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴾ [٣٤-٤٦].

واجفة: خائفة مضطربة.

الساهرة: قالوا هي الأرض البيضاء، أو هي اسمٌ لجهنم.

من سورة النبإ

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ .
عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ .
ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴾ [١ - ٣]

﴿ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا .
يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجًا .

وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا .
وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [١٧ـ٢٠] .

من سورة المُرْسَلات

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ .
وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ .
وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ .
وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ .
لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ .
لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ .
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ .
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [٨ـ١٥] .

أُقِّتَتْ : من التوقيت ليومٍ معلوم، وهو يومُ الفصل، أو يوم القيامة .

من سورة القيامة

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ .
وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ .
أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ .
بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ .
بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ .
يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ .
فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ .
وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ .

وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ .
يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ .
كَلَّا لَا وَزَرَ .
إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ .
يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [١ـ١٣].

من سورة المُدَّثِّر

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ .
فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ .
عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ .
ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا .
وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا .
وَبَنِينَ شُهُودٗا .
وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا .
ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ .
كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا .
سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [٨ـ١٧].

من سورة المُزَّمِّل

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [١٤].
﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا .
ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ [١٧ـ١٨].

من سورة نوح

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا .
ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴾ [١٧-١٨].

من سورة المَعارِج

﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ .
لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ .
مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ .
تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ .
فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا .
إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا .
وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا .
يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ .
وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴾ [١-٩].

﴿ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ .
خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [٤٣و٤٤].

من سورة الحاقّـة

﴿ ٱلۡحَآقَّةُ .
مَا ٱلۡحَآقَّةُ .
وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ [١-٣].

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ .

وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً .
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ .
وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ .
وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ .
يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [١٣-١٨].

الحاقّة: من أسماء القيامة، لأن الله سبحانه حَقَّقَ بها وعدَه بالبعث والحساب والجزاء، وهي حقٌّ على الناس لا بدّ منه.

من سورة التغابُن

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ . . ﴾ [٩].

يوم الجمع: يوم القيامة.

يوم التغابُن: يوم القيامة أيضاً، لأن الطيّب الصالح هو الغابِنُ الرابح، والخبيث الفاجر هو المغبون الخاسر.

وغَبَنَه: غَلَبَهُ ونَقَصَهُ.

من سورة الحديد

﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ . . ﴾ [٢١].

من سورة الواقعة

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ .
لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ .

خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ .
إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا .
وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا .
فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [١ ـ ٦].

من سورة القمر

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [١].

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ .
خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ .
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [٦ ـ ٨].

من سورة النجم

﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ .
لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [٥٧و٥٨].

من سورة الطُّور

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ .
مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ .
يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا .
وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [٧ ـ ١٠]

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [٤٥].

من سورة الذّاريات

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا .
فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا .
فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا .
فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا .
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ .
وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴾ [١-٦].

من سورة قٓ

﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ .
وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ .
رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ [٩-١١].

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ .
وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ .
إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ .
مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ .
وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ .
وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ .
وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ .
لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾ [١٥-٢٢].

﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ .
يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ .

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ .
يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [٤١ ـ ٤٤].

من سورة مُحمّد

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ . . ﴾ [١٨].

من سورة الأحقاف

﴿ . . كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ . . ﴾ [٣٥].

من سورة الجاثية

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .
هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٨و٢٩].

من سورة الزخرف

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٦٦].

من سورة فُصِّلَتْ

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٣٩].

من سورة غافر

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ .

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [١٥و١٦].

من سورة الزُّمَر

﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [١٥].

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ .

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [٦٧-٦٩].

من سورة الصّافّات

﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [١٩].

من سورة يٓس

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [١٢].

الإمام: كناية عن عِلم الله الذي لا يَعْزُبُ عنه شيء.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [٣٣].

قال مغنّية: «هذه من آيات البعث والنشور، وفيها الدّلالة الكافية الوافية على إمكان الحياة بعد الموت، بل ووقوعه أيضاً كما ترى الحياةَ الأرضُ بعد موتها».

حقاً إن المُحْيي هو الخالقُ أولَ مرّة، وليست الحياة الدنيا خُلقت باطلاً، بل إنّ الإنسان مُحاسَبٌ على كل أعماله، وهذا هو عين الحق، وإلاّ لاستوى السّيىءُ والحَسَن، ولانعدمت العدالة في الحياة، والحكمة من الخَلْق. والله تعالى مُحْصٍ كل آثار الناس، كل ما يعملون، ثم هو مُحاسبُهم به يوم القيامة.

فالخالق، المُحيي، المُميت، هو المُحصي، وهو الحسيب.

وٱنظُرْ إلى تحوّل الأشياء، في الآية الكريمة، من حالٍ إلى حال، وخروج الشيء من الشيء. انظر إلى المثال البديع الذي يضربه الحق سبحانه في بعث الناس من القبور، إذ إن إحياءهم هو كإحياء الأرض بالنبات يخرج منها مِن بعد موتها، وخروجُ الإنسان من القبور يبدو وكأنه خروجٌ من شيءٍ غير محسوس كخروج النبات من الأرض من حبّةٍ صغيرة لا تُرى تحت الأرض ثم إذا هو يخرجُ منه الحَبُّ الذي يصير مرةً أخرى أداةً للحياة إذ يقتاتُ عليه الإنسان وإذ يصيرُ مصدراً للنبات، فٱنظرْ إلى حكمة ربّك وقدرته وحسن تدبيره في كل ذلك.

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ.

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ.

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [٤٩-٥٣].

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ.

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِۚ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [٦٥ ـ ٦٨].

إنّ كلَّ إنسان، بل وكل مخلوق، مصيره الموت، لا شك في ذلك، بل هو من أولى حقائق الحياة، وإن أقصى ما يَطْمَحُ إليه إنسان هو أن يعمَّر طويلاً، بل هو الطِّماحُ الذي لا يَعرِفُ حدّاً. أوَليسَ ذلك زيادة؟ والزيادةُ قوّة، هكذا هي طبائع الأشياء كما نفهمها نحن، ولكن حقائق الحياة تُعلِّمُنا شيئاً آخر: (ومن نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ في الخَلق أفلا يعقلون). قالوا في تفسير هذه الآية: الشيخوخة آفَةٌ تُحَوِّلُ الإنسان من الإدراك إلى الخَرَف، ومن القوّة إلى الضعف، وقد يُصبح كالطفل الرضيع يعجزُ حتى عن قضاء حاجته الضرورية، والموت أيسرُ من هذه الحياة وأفضل، والغرض من هذه الإشارة أن يبادر الإنسان إلى التوبة والصالحات من الأعمال قبل فوات الأوان.

فأنْظُرْ إلى أقصى طِماح الإنسان في مزيدٍ من العمر، ومزيدٍ من القوة، كيف هو ينقلب إلى مزيد من الضعف، وإلى الجهل من بعد علم، قبل أن يموت، وتلك لَعمري إماراتُ المخلوقين الفانين، فما أحراهم أن يتوجهوا إلى ربِّهم وإلٰهِهِم ومَلِكِهم بالعبادة، والخضوع له وحده، إذ إنَّ من كانت نهايَتُه الضعف، ثم الخَرَف، ثم الموت، لهو حَرِيٌّ به أن يستعدّ لِما هو أكثرُ من ذلك، وأبعد، وأهمُّ كثيراً، وكثيراً جداً، وذلك هو عين الحكمة، وإلاّ فهو الخُسران المبين.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ.
قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ.
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ.
أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ.
إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ.
فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٣].

كذَّب المشركون بفكرة البعث لأن الشيء لا يتولّد منه ما هو ضِدٌّ له كما

يعتقدون، فأقامَ سبحانه الدليل عليهم بالشجر الأخضر الممتلىء بالماء المُضادّ للنار، علماً بأن هذه تتولد من ذاك، أي النار من الشجرِ الأخضر.

فأنظر إلى المَثَل الأعلى الذي قد ضربه تعالى بتحويل الأشياء من حالٍ إلى حال، وإلى إخراج الميت من الحيّ مثل إخراجه للحيّ من الميت.

ولئن كان في إخراج النار من الشجر المُمتلِىءِ ماءً إعجازٌ، فهو يُظهِرُ قدرة الخالق على الخَلق وعلى تحويل الشيء من حالٍ إلى حال، بل وحتّى إلى نقيضه، مثل تناقض الماء مع النار.

ونحن نرى أن الآية الكريمة تُخفي إعجازاً آخر فوق إعجازها ذاك. فإذا كان إعجازُها الذي قد تبيّنّاه ظاهراً واضحاً للعيان، فإن هناك إعجازاً آخر على مستوىً أدَقّ وأصغر، قد عرفه العلم الحديث، وأعني به الذرّة وأجزاء الذرّةِ.

فالفرق بين الشجر وبين النار، في حقيقة الأمر، ليس هو إلاّ الفرق على أصغر مستوى ممكن، أي على مستوىٰ الذرّات بل وأجزاء الذرّات.

والشجر، مِثلُهُ مثل كل المواد المعروفة، يتكون من ذرّات، إذ هكذا هي كل العناصر والمركّبات.

وأما النّار، وكما قد عرفنا مؤخراً، فهي ليست كالمادة المعروفة، فهي ليست من ذرّات، وهي لا تُعتبر عنصراً ولا مركّباً، بل هي من «بلازما»، والبلازما هنا هي ليست «البلازما» التي يعرفها الأطباء، أي ليست سائل الدم، بل هي في عُرف علماء الطبيعة والفلك شيءٌ آخر. إنها إلكترونات ابتعدت عن نوى الذرّات وانفصلت عنها نهائياً، فلم يَعُدْ للذرّة المعروفة، أو العنصر المعروف، من وجود[1].

وهكذا فإن الفرق بين الشجر والنار هو في جوهره الفرق بين المادة التي نعرفها، وبين مادةٍ أخرى ليست بالعنصر ولا بالمركب، وهي «البلازما». فتبارك الله أحسن الخالقين، الذي خلق ما لا نعلم، والذي يحوّل الأشياء من حال إلى حال، والذي علّمَنا ما لم نعلم.

---

(١) الكون ـ د. كارل ساغان، دار المعرفة، ١٩٩٣، ص ١٩٤.

من سورة فاطر

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [٩].

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [٤١].

من سورة لقمان

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[٢٨].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ . . ﴾ [٣٤].

من سورة القصص

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [٨٣].

من سورة النمل

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [٨٢].

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [٨٧].

داخرين: أذلاّء صاغرين.

من سورة الشعراء

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ .
وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ [٩٠ و ٩١].

من سورة الفُرْقان

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [٢٥].

من سورة المؤمنون

﴿ . . وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .
فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [١٠٠ و١٠١].

من سورة الحَجّ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ .
يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [١و٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ .
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .
وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [٥ ـ ٧].

من سورة الأنبياء

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [١].

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [٤٧].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ.

وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [٩٦ و ٩٧].

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ.. ﴾ [١٠٤].

من سورة طه

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا.

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا.

لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا.

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [١٠٥ ـ ١٠٩].

من سورة مريم

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [٣٩ ـ ٤٠].

من سورة الكهف

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [٨].

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا.

وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا .

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [٤٧ ـ ٤٩].

﴿ . . فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا .

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ [٩٨ ـ ١٠٠].

من سورة الإسراء

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا .

ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [١٣ و ١٤].

وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائِرَهُ: أي عَمَلَه الصادرَ الطائرَ عنه.

﴿ . . فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ . . ﴾ [٥١].

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [٥٨].

من سورة النحل

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١].

أَمْرُ الله: وقت الحساب وجزاء الأعمال. ووُضِع الفعلُ الماضي وهو أتىٰ مكانَ المضارع لأنه واقعٌ لا محالة، وكل آتٍ قريب.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ . . ﴾ [٧٧].

من سورة الحِجْر

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ . . ﴾ [٨٥].

من سورة إبراهيم

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ .

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [٤٢ و ٤٣].

مُهْطِعينَ: مُسْرِعين تلبيةً لدعوة الداعي.

مُقْنِعي رؤوسِهم: يرفعون رؤوسَهم إلى السماء.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [٤٨].

من سورة هود

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ .

وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ .

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ .

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ .

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ .

۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [١٠٣ ـ ١٠٨].

﴿ . . وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [١١٩].

من سورة يونس

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢٤].

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ . . ﴾ [٤٥].

من سورة الأعراف

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ . . ﴾ [٤٠].

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ . . ﴾ [٤٦].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١٨٧].

حَفِيٌّ عنها: مهتمٌ بالسؤال عنها مثل اهتمامهم بها.

من سورة الأنعام

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ.

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [٣١ و ٣٢].

﴿ . . وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ .

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ . . ﴾ [٩٣ و ٩٤].

﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [١٢٧].

من سورة آلِ عِمْران

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [١٣٣].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [١٨٥].

من سورة البقرة

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[٤].

﴿ . . فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢٤].

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [٢١٠].

الباب الثاني عشر

القيامة في «العهد القديم»

خُلُوُّ «العهد القديم»، أو «التوراة»، من ذكر يوم القيامة

قَرَأنا في الفصل السابق قسماً من آيات القرآن الكريم التي نزلت في يوم القيامة، وهي غيرُ الآيات التي تتحدث على الحساب، والجنة، والنار، وما أكثرها، والتي لا يَتَّسِعُ لها مثلُ هذا الكتاب بالطبع.

ومِن عَجَبٍ أنْ قد اتّهم بعضُ المفتَرين القرآنَ الكريم بأنّه لم يلتفت إلى الحياةِ الآخرةِ بالاهتمام، بينما أنّنا لا نجدُ في كتابٍ غيرِه ما قد أولاهُ القرآن من أشَدِّ عنايةٍ وأعظَمِها بالحياة الآخرة.

ونقرأُ في هذا الفصل مختاراتٍ حول موضوع ما بعد الموت والقيامة في «العهد القديم»، أولهما لكاتبٍ شرقي مسلم، وثانيهما عن موسوعة «كولبير» الأمريكية.

***

«إن التوراة قد سبرناها بالاستقصاء وهي كتابٌ كثيرُ الكلام، وقد تكلَّمَتْ في أمورٍ كثيرة بكلامٍ طويل، وقد تعرّضَتْ لأمورٍ لا حاجةَ لها في إصلاح البشر، بل إنها تعرضت لأمورٍ لا يليقُ بالكتاب الإلّهي أن يذكرَها، فذكرتها بالشرح الطويل المزعج، ومن ذلك حكايتُها الطويلة في أنّ «لوطاً» زَنَى بابنتيه، وأن يعقوب خادعَ إسحاق في أخذ البركة وكذبَ عليه مراراً، وأن رأوبين زنا بامرأةِ أبيه يعقوب[1].

---

(١) سفر التكوين ٣٤:١ ـ ٢٩.

فما لها لم تذكُرْ يومَ القيامة وثوابه وعقابه ولا بكلمةٍ واحدة، فلم تُرَغِّب المطيعين بثوابه، ولم تهدد المتمردين بعقابه، مع أنها سلكت مع بني إسرائيل مسلك الترغيب والتخويف، ولكنّها رغّبتهم للطاعة بكثرة الحنطة والخمر والزيت، وخوّفتهم بالمرض وقلة الحنطة والخمر، وأنّ الرجل يتزوج امرأة ويزني الآخر بها.

فلماذا أعرضَتْ عن ذِكر القيامة وثوابها وعقابها؟ إنّ أمر القيامة حقيقةٌ دينية عِرفانية، والالتفات إليها يتكفل بصلاح البشر وتهذيب أخلاقهم وانتظام اجتماعهم، فكيف يليق بالكتاب الإلَهي المنزّل للإصلاح وكشف الحقائق أن يهمل هذا الأمر الكبير المهم ويجعله نسياً منسياً؟ هل يصح أن يكون مثل هذا في الكتاب الإلَهي؟

هل تظنّ أن الله وموسى نبيه يهملان ذكر يوم القيامة في مثل التوراة التي هي كلام الله ووحيه؟ وكيف يتمحض الوحي الإلَهي وكلام الله للسفاسف التي ذكرتها، ولمخالفات العقول التي مرّت في مكالماتنا في شؤون آدم وإبراهيم ويعقوب وهارون وغير ذلك؟

أنا أؤمن بأن التوراة كلام الله، ولكن لا يلزم أن أؤمن أن هذا المكتوب الذي بأيدي الناس هو التوراة التي كتبها موسى من كلام الله، (هذا بينما) أن اليهود والنصارى في جميع أجيالهم يقولون: إن هذه التوراة هي بعينها توراة موسىٰ وكلام الله، قد حفظها تاريخ الإيمان بها بعناية التواتر اليقيني»[1].

***

«إنّ من المدهِش للبعض أن يعلموا بأن المعتقدات اليهودية التي تخص الخلود قد كانت بطيئة في نشوئها، والتاريخ اليهودي المبكّر يجعل من الواضح أنه لم يكن هناك، بالنسبة إلى اليهود، في بادىء الأمر، أيُّ تفكيرٍ في حياة الإنسان بعد الموت، وأمّا الروح «Rauh»، أو (نَفَسُ الحياة)، فلم يُنظَر إليها قطّ على أنها يمكن أن توجد من دون الجسد.

---

(١) «الرِّحلة المدرسية، بحوث في التوراة والإنجيل»، للعلاّمة محمد جواد البلاغي.

ورغم أنّ اليهود، في عهودٍ لاحقة، قد اكتسبوا بعض الأفكار عن الحياة الأبدية فإن فكرة الخلود كانت دائماً فكرة هامشية في المعتقد اليهودي، وقد كان هناك، ولقرونٍ عديدة، سكوتٌ تام تقريباً عن فكرة الخلود. وحتى في زمن المسيح فإن الصدوقيين (Sadducees)، وهم حزبٌ كان يمثل الطبقة الكهنوتية والارستقراطية، قد رفضوا عقيدة البعث. إن القرون الأولى لليهود لم تُثِرْ حتى مجرد سؤال عن خلود الإنسان، إذ إنّ الموت كان هو النهاية الطبيعية للإنسان، وما كان مُهِمّاً هو استمرار «شعب إسرائيل» في الوجود. وبالموازاة مع هذا الاعتقاد فلقد ساد تيّار «اللاأدرية» (Agnosticism) خاصّةً في أسفار «الحكماء» التوراتية، ويبدو في هذه الأسفار أن البقاء الوحيد الذي يستحق النضال من أجله هو البقاء في ذاكرة الرجال المُحِبَّة، وهو الرأي نفسه الذي نجده في العصر الحديث، في الفلسفة الوضعية[١]. ولا يوجد في سِفْر «أيوب»، الذي يُعتقد بأنه قد كُتِب ما بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد، أيُّ ذِكْرٍ واضح للحياة الآخرة، أما سِفْر «الكهنوت» (Ecclesiasticus) فقد شَبَّه الناس بالحيوانات وأعلن أن لا جدوى من عمل أي شيءٍ من أجل الموتى.

إن معتقدات اليهود حول الجنة، أو «الفردوس» هي معتقداتٌ غامضة ومتناقضة، لا بل إنّ وجودها نفسه مشكوكٌ فيه.

وحتى اليوم فإنّ هناك تردداً وحيرةً عظيمين، بين اليهود، حول وجود الروح وإن كانت توجد بعد الموت أم لا»[٢].

---

(١) الفلسفة الوضعية: فلسفة أوغست كنت (Positivism).

(٢) Collier's Encyclopedia, Vol. 10, p. 509 - 511, Vol. 12, p. 539 - 540 (1983).

الفهـرس

الباب الثاني
ما قبل القيامة

أولاً ـ في كتاب الله تعالى

ثانياً ـ ما قبل القيامة
في حديث رسول الله (ص)

ثالثاً ـ أحوال الناس في آخر الزمان
للإمام علي

الباب الثالث
القيامة والكون

الباب الرابع
«قيامة الشمس»
١ ـ نهاية الشمس والنجوم التي تماثلها

الباب الخامس
«قيامة الشمس»
٢ ـ معجزات آية التكوير

الباب السادس
القمر يوم القيامة

الباب السابع
يوم القيامة

الباب الثامن
أحوال الكرة الأرضية

الباب التاسع

الجنة والنار

الباب العاشر

الصعود في الأعالي

الباب الحادي عشر

القيامة في القرآن الكريم

الباب الثاني عشر

القيامة في «العهد القديم»